الْقِصَّةُ الْكَامِلَةُ

لِعَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ

عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ

مِنْ مِيلَادِهِ إِلَى يَوْمِ وَفَاتِهِ

جَمَعَهَا

أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيتَةَ

أَبُو حَمْزَةَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَحْوَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مِيلَادِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –﴾

قَبْلَ مِيلَادِ مُوسَى – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ – سُلِّطَ فِرْعَوْن عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَأَخَذَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَخَسِّ الْأَعْمَالِ، وَيَكُدُّهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْغَالِهِ وَأَشْغَالِ رَعِيَّتِهِ ، وَيَقْتُلُ – مَعَ هَذَا – أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ؛ إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمُ الْغُلَامُ الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ غُلَامٌ، يَكُونُ سَبَبُ هَلَاكِهِ وَذَهَابُ دَوْلَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ!.[1]

فَأَرَادَ فِرْعَوْنُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ(!) أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى، فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ مَعَ قَدَرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ! الَّذِي لَا يُخَالَفُ أَمْرُهُ الْقَدَرِيُّ، بَلْ نَفَذَ حُكْمُهُ وَجَرَى قَلَمُهُ فِي الْقِدَمِ بِأَنْ يَكُونَ إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ! بَلْ يَكُونُ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي احْتَرَزْتَ مِنْ وُجُودِهِ، وَقَتَلْتَ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الْوِلْدَانِ إِنَّمَا مَنْشَؤُهُ وَمُرَبَّاهُ عَلَى فِرَاشِكَ وَفِي دَارِكَ! وَغِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامِكَ! وَأَنْتَ تُرَبِّيهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتَتَفَدَّاهُ! وَحَتْفُكَ، وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ جُنُودِكَ عَلَى يَدَيْهِ!!.

لِتَعْلَمَ أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَا هُوَ الْقَادِرُ الْغَالِبُ الْعَظِيمُ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ الْمِحَالِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.[2]

۞۞۞۞۞

[1] تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ؛ بِتَصَرُّفٍ.

[2] تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ؛ بِتَصَرُّفٍ.

﴿بِدَايَةُ الْقِصَّةِ﴾

قَالَ اللهُ – تعَالَى –: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْقَصَصُ: ٧-١٣].

أَوْحَى اللهُ – تعَالَى – إِلَى أُمِّ مُوسَى[٣] – حِينَ وَلَدَتْ مُوسَى – أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ مِنْ جَوَاسِيسِ فِرْعَوْنَ وَنُقَبَائِهِ[٤] الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْأَوْلَادَ؛ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ – وَالْيَمُّ هُنَا: نِيلُ مِصْرَ –، بَعْدَ وَضْعِهِ فِي صُنْدُوقٍ مِنَ الْخَشَبِ، وَلا تَخافِي مِنْ غَرَقِهِ وَضَيَاعِهِ؛ وَمِن الْتِقَاطِهِ فَيُقْتَلُ! وَلا تَحْزَنِي لِمُفَارَقَتِكِ إِيَّاهُ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ عَنْ قَرِيبٍ؛ لِتَكُونِي أَنْتِ الْمُرْضِعَةُ لَهُ، وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ!.

فَفَعَلَتْ أُمّ مُوسَى مَا أُمِرَتْ بِهِ؛ مِنْ إِرْضَاعِهِ، وَمِنْ إِلْقَائِهِ فِي الْيَمِّ – بَعْدَ مَا جَعَلَتْهُ فِي الصُّنْدُوقِ –؛ فَذَهَبَ بِهِ النِّيلُ إِلَى دَارِ فِرْعَوْنَ!.

---

[٣] أَيْ: أَلْهَمَهَا وَقَذَفَ فِي قَلْبِهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ رُؤْيَا مَنَامٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْحَى إِلَيْهَا ذَلِكَ بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ كَلَّمَهَا بِذَلِكَ.

وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِيحَاءِ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ أَنْ يَكُونَ الْمُوحَى إِلَيْهِ نَبِيًّا! وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً، وَإِنَّمَا كَانَ إِرْسَالُ الْمَلَكِ إِلَيْهَا – عِنْدَ مَنْ قَالَ بِهِ – عَلَى نَحْوِ تَكْلِيمِ الْمَلَكِ لِلْأَقْرَعِ، وَالْأَبْرَصِ، وَالْأَعْمَى – كَمَا فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا –، وَقَدْ سَلَّمَتْ عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ الْمَلَائِكَةُ – كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ(١٢٢٦) –؛ فَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ نَبِيًّا!.

[٤] النُّقَبَاءُ: جَمْعُ نَقِيبٍ؛ وَهُوَ كَالْعَرِيفِ عَلَى الْقَوْمِ الْمُقَدَّمِ عَلَيْهِمْ، الَّذِي يَتَعَرَّفُ أَخْبَارَهُمْ، وَيُنَقِّبُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ؛ أَيْ: يُفَتِّشُ [النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ؛ لِابْنِ الْأَثِيرِ].

وَلَمَّا الْتَقَطُوهُ هَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ الْمَوْلُودَ الَّذِي يَحْذَرُونَ زَوَالَ مُلْكِهِمْ عَلَى يَدَيْهِ! فَأَلْقَى اللهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِ آسِيَةَ – امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ –، فَقَالَتْ: هَذَا الْوَلَدُ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ يَا فِرْعَوْنُ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا[٥]﴾، فَأَلْقَى اللهُ حُبّ مُوسَى فِي قُلُوبِهِمْ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ فَأَحَبَّهُ اللهُ، وَحَبَّبَهُ إِلَى خَلْقِهِ!.

فَقَدَّرَ اللهُ نَجَاةَ مُوسَى؛ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ، فَجَعَلَ اللهُ ذَلِكَ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ!.

وَبَقِيَتْ أُمُّهُ بَعْدَ قَذْفِهِ فِي النِّيلِ مَغْمُومَةً! كَادَتْ – مِنْ شِدَّةِ غَمِّهَا وَحُزْنِهَا وَأَسَفِهَا – تُظْهِرُ أَمْرَهُ وَتَسْأَلُ عَنْهُ جَهْرَةً؛ لَوْلَا أَنَّ اللهَ ثَبَّتَهَا وَصَبَّرَهَا!!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فَأَمَرَتْ أُخْتَهُ بِالتَّفْتِيشِ فِي الْمَدِينَةِ؛ لَعَلَّهَا تَقَعُ عَلَى خَبَرِهِ، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ مُوسَى: تَتَبَّعِي أَثَرَهُ وَاعْرِفِي خَبَرَهُ، وَانْظُرِي: أَيْنَ وَقَعَ، وَإِلَى مَنْ صَارَ؟.

فَرَأَتْهُ أُخْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ كَالْمُعْرِضَةِ عَنْهُ، تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تُرِيدُهُ!! وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهَا أُخْتُهُ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهَا تُرَاقِبُ أَحْوَالَهُ؛ وَذَلِكَ مِنْ حَذَقِ أُخْتِهِ فِي كَيْفِيَّةِ مُرَاقَبَتِهِ!.

فَوَجَدَتْهُ مُمْتَنِعًا مِنْ أَنْ يَقْبَلَ ثَدْيَ مُرْضِعَةٍ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ[٦]﴾؛ لِيَتَيَسَّرَ بِذَلِكَ رُجُوعُهُ إِلَى أُمِّهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَبِلَ غَيْرَهَا لَأَعْطَوْهُ لِذَلِكَ الْغَيْرِ الَّذِي قَبِلَهُ لِيُرْضِعَهُ وَيَكْفُلَهُ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى أُمِّهِ!.

فَلَمَّا رَأَتْهُمْ أُخْتُهُ حَائِرِينَ فِيمَنْ يُرْضِعُهُ، قَالَتْ[7]: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَضْمَنُونَ رَضَاعَهُ وَالْقِيَامَ بِمَصَالِحِهِ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ لَا يَمْنَعُونَهُ مَا يَنْفَعُهُ، وَلَا يُقَصِّرُونَ فِي تَرْبِيَتِهِ وَإِرْضَاعِهِ، وَلَا

---

[٥] فقدَّرَ اللهُ – تَعَالَى – أَنَّهُ نَفَعَ امْرَأَةَ فِرْعَونَ، الَّتِي قَالَتْ تِلْكَ الْمَقَالَة، فَإِنَّهُ لَمَّا صَارَ قُرَّة عَيْنٍ لَهَا، وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا، فَلَمْ يَزَلْ لَهَا بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ الشَّفِيقِ حَتَّى كَبُرَ وَنَبَّأَهُ اللهُ وَأَرسَلَهُ، فَبَادَرتْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا [سَعْدِي].

[٦] أَيْ: تَحْرِيمًا كَوْنِيًّا قَدَرِيًّا.

[٧] وَإِنَّمَا قَالَتْ ذَلِكَ؛ بَعْدَ أَنْ فَشَا فِي النَّاسِ طَلَبُ الْمَرَاضِعِ لَهُ، وَتَبْدِيلُ مُرْضِعَةٍ عَقِبَ أُخْرَى؛ حَتَّى عُرِضَ عَلَى عَدَدٍ كَثِيرٍ فِي حِصَّةٍ قَصِيرَةٍ، وَذَلِكَ بِسُرْعَةِ مَقْدِرَةِ آلِ فِرْعَوْنَ وَكَثْرَةِ تَفْتِيشِهِمْ عَلَى الْمَرَاضِعِ، حَتَّى أَلْفَوْا عَدَدًا كَثِيرًا فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ.
وَأَيْضًا: لِعَرْضِ الْمَرَاضِعِ أَنْفُسَهُنَّ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ لَمَّا شَاعَ أَنَّهُمْ يَتَطَلَّبُونَ مُرْضِعًا [التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِير؛ لِابْنِ عَاشُورٍ].

يَخُونُونَكُمْ فِيهِ؟ قَالُوا: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَتْ: أُمِّي! فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَى أُمِّهَا[8]، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ ثَدْيَهَا؛ فَقَبِلَهُ، وَرَضِعَ مِنْهُ؛ فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَى إِرْضَاعِهِ!. فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ! مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، الَّذِي يَجْعَلُ لِمَنِ اتَّقَاهُ بَعْدَ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَبَعْدَ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾أَيْ: فَرَدَدْنَا مُوسَى ﴿إِلَى أُمِّهِ﴾ بَعْدَ أَنِ الْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ كَمَا وَعَدْنَاهَا بِذَلِكَ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِرُؤْيَةِ فِلْذَةِ كَبِدِهَا مُوسَى ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ عَلَى فِرَاقِهِ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ﴾أَيْ: جَمِيعَ وَعْدِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ مَا وَعَدَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾.وَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى كَمَالَ الرُّشْدِ وَنِهَايَةَ الْقُوَّةِ، وَتَمَامَ الْعَقْلِ وَالِاعْتِدَالِ؛ آتَاهُ اللهُ الْفِقْهَ وَالْعَقْلَ وَالْعِلْمَ فِي الدِّينِ، فَعَلِمَ مُوسَى وَحَكَمَ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا.

وَدَخَلَ مُوسَى مَدِينَةً مِنْ مُدُنِ مِصْرَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَغْفُلُ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَمَّا يَجْرِي فِيهَا؛ وَهُوَ وَقْتُ اسْتِرَاحَةِ النَّاسِ وَتَفَرُّقِهِمْ وَخُلُوِّ الطَّرِيقِ مِنْهُمْ.

فَوَجَدَ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلَيْنِ يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَازَعَانِ: أَحَدُهُمَا مِنْ شِيعَتِهِ، أَيْ: مِنْ أَهْلِ دِينِ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّهِ، أَيْ: مِنَ الْقِبْطِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ.

فَاسْتَغَاثَ الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْصُرَهُ وَيُعِينَهُ عَلَى خَصْمِهِ؛ فَوَكَزَ مُوسَى الْقِبْطِيَّ اسْتِجَابَةً لِاسْتِغَاثَةِ الْإِسْرَائِيلِيِّ؛ فَأَمَاتَهُ مِنْ تِلْكَ الْوَكْزَةِ؛ لِشِدَّتِهَا، وَقُوَّةِ مُوسَى!.

وَكَانَ مُوسَى لَمْ يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ زَجْرَهُ وَرَدْعَهُ! وَلَكِنْ وَافَقَتْ وَكْزَتُهُ الْأَجَلَ، فَنَدِمَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَلَى مَا جَرَى مِنْهُ!!.

وَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الْقِبْطِيَّ: هَذَا الْقَتْلُ مِنْ تَسَبُّبِ الشَّيْطَانِ لِي؛ بِأَنْ هَيَّجَ غَضَبِي حَتَّى ضَرَبْتُ هَذَا فَهَلَكَ مِنْ ضَرْبَتِي!!.

---

[8] فَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ عَادَتَهُمْ فِي الْإِرْضَاعِ أَنْ يُسَلَّمَ الطِّفْلُ الرَّضِيعُ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي تُرْضِعُهُ يَكُونُ عِنْدَهَا؛ كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ الْحَرَائِرَ لَمْ يَكُنَّ يَرْضَيْنَ بِتَرْكِ بُيُوتِهِنَّ وَالِانْتِقَالِ إِلَى بُيُوتِ آلِ الْأَطْفَالِ الرُّضَعَاءِ؛ كَمَا جَاءَ فِي خَبَرِ إِرْضَاعِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ حَلِيمَةَ بِنْتِ وَهْبٍ فِي حَيِّ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ [الْمَرْجِعُ السَّابِقُ].

وَجعَلَهُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَسَمَّاهُ ظُلْمًا لِنَفْسِهِ وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَدَّى إِلَى قَتْلِ مَنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي قَتْلِهِ!.

ثُمَّ وَصَفَ الشَّيْطَانَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾أَيْ: عَدُوٌّ لِلْإِنْسَانِ يَسْعَى فِي إِضْلَالِهِ، ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ وَالْإِضْلَالِ!.

وَإِنَّمَا قَالَ مُوسَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ مُسْتَقْبَحٌ فِي الشَّرَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَإِنَّ حِفْظَ النَّفْسِ الْمَعْصُومَةِ مِنْ أُصُولِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا، وَكَانَ مُوسَى يَعْلَمُ دِينَ آبَائِهِ – لَعَلَّهُ – بِمَا تَلَقَّاهُ مِنْ أُمِّهِ – الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ – فِي مُدَّةِ رَضَاعِهِ، وَفِي مُدَّةِ زِيَارَتِهِ إِيَّاهَا.

ثُمَّ طَلَبَ مُوسَى مِنَ اللهِ – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا وَقَعَ مِنْهُ فَـ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِقَتْلِ الْقِبْطِيِّ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ، ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾! فَعَفَا اللهُ لِمُوسَى عَنْ ذَنْبِهِ وَلَمْ يُعَاقِبْهُ بِهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ مُوسَى: رَبِّ بِمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَاهِ وَالْعِزَّةِ وَالْمَنعَةِ ؛ فَلَنْ أَكُونَ مُعِينًا لِلْكَافِرِينَ بِكَ، الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِكَ!.

فَأَصْبَحَ مُوسَى فِي مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ – الَّتِي قَتَلَ فِيهَا الْقِبْطِيَّ – خَائِفًا مِنْ جِنَايَتِهِ الَّتِي جَنَاهَا، وَقَتْلِهِ النَّفْسَ الَّتِي قَتَلَهَا أَنْ يُؤْخَذَ فَيُقْتَلَ بِهَا، يَنْتَظِرُ مَا الَّذِي يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، مِمَّا هُمْ صَانِعُونَ فِي أَمْرِهِ وَأَمْرِ قَتِيلِهِ!.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؛ فَإِذَا الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى الْقِبْطِيِّ؛ يُقَاتِلُهُ قِبْطِيٌّ آخَرُ! فَلَمَّا مَرَّ مُوسَى، رَآهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ؛ فَأَخَذَ يَصِيحُ بِمُوسَى مُسْتَغِيثًا لِيَنْصُرَهُ عَلَى الْقِبْطِيِّ! فَقَالَ مُوسَى لِلْإِسْرَائِيلِيِّ – مُعَنِّفًا لَهُ عَلَى كَثْرَةِ شَرِّهِ وَمُخَاصَمَتِهِ –: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾أَيْ: ظَاهِرُ الْغَوَايَةِ، كَثِيرُ الشَّرِّ! قَاتَلْتَ بِالْأَمْسِ رَجُلًا فَقَتَلْتُهُ بِسَبَبِكِ! وَتُقَاتِلُ الْيَوْمَ آخَرَ وَتَسْتَغِيثُنِي عَلَيْهِ؟!!.

ثم إِنَّ مُوسَى أَدْرَكَتْهُ الرِّقَّةُ بِالْإِسْرَائِيلِيِّ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَبْطِشَ بِالْقِبْطِيِّ، فَظَنَّ الْإِسْرَائِيلِيُّ – لِخَوَرِهِ وَضَعْفِهِ وَذِلَّتِهِ! – أَنَّ مُوسَى يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ؛ لِمَا رَأَى مِنْ غَضَبِهِ وَسَمِعَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

مُبِينٌ﴾، فَقَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؟ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –.

قِيلَ: فَلَمَّا سَمِعَ الْقِبْطِيُّ مَا قَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ؛ عَلِمَ أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبْطِيَّ الْآخَرَ! فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ؛ وَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِ مُوسَى!!.

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ آخِرِ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ! فَقَالَ: يَا مُوسَى!! إِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَرُؤَسَاءَهُمْ يَتَشَاوَرُونَ فِي قَتْلِكَ!! فَاخْرُجْ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوكَ فَيَقْتُلُوكَ!! ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ لَكَ بِالْخُرُوجِ.

فَلَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ؛ خَرَجَ مِنْ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، مُتَرَقِّبًا لُحُوقَهُمْ بِهِ، وَإِدْرَاكَهُمْ لَهُ!!.

ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ بِأَنْ يُنْجِيَهُ مِمَّا خَافَهُ، قَائِلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾أَيْ: خَلِّصْنِي مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، وَادْفَعْهُمْ عَنِّي، وَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ!.

وَلَمَّا خَرَجَ مُوسَى مِنَ الْمَدِينَةِ هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ، فَارًّا بِنَفْسِهِ، مُنْفَرِدًا خَائِفًا، لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ، وَلَا إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ؛ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ مَدْيَنَ، مَاضِيًا إِلَيْهَا، شَاخِصًا عَنْ مَدِينَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَارِجًا عَنْ سُلْطَانِهِ، حِينَئِذٍ قَالَ: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قَالَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفِ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا قَبْلُ، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، فَأَلْهَمَهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ، فَلَمْ يَضِلَّ فِي سَيْرِهِ!.

فَمَشَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا – وَهُوَ بِئْرٌ كَانُوا يَسْقُونَ مِنْهَا مَوَاشِيَهُمْ –، فَوَجَدَ عَلَى الْمَاءِ جَمَاعَةً كَثِيرَةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ مَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾يَعْنِي: بَعِيدًا عَنِ الْمَاءِ، امْرَأَتَيْنِ تَحْبِسَانِ وَتَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ حَتَّى يَفْرُغَ النَّاسُ مِنْ سَقْيِ مَوَاشِيهِمْ، وَتَخْلُوَ لَهُمُ الْبِئْرُ؛ لِئَلَّا يُؤْذَيَا!.

وَلَمَّا رَآهُمَا مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –؛ رَقَّ لَهُمَا وَرَحِمَهُمَا – كَمَا هِيَ عَادَتُهُ –، فَقَالَ لَهُمَا: مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ مَوَاشِيَكُمَا مَعَ النَّاسِ؟ قَالَتِ الْمَرْأَتَانِ لِمُوسَى: لَا نَسْقِي مَاشِيَتَنَا حَتَّى

يَسْقِيَ النَّاسُ وَيَنْصَرِفُوا؛ لِأَنَّا امْرَأَتَانِ لَا نُطِيقُ أَنْ نَسْقِيَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُزَاحِمَ وَنُخَالِطَ الرِّجَالَ! فَإِذَا فَرَغُوا؛ سَقَيْنَا مَوَاشِيَنَا مِنْ فَضْلِ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ فِي الْحَوْضِ!.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ – مِنَ الْكِبَرِ وَالضَّعْفِ – أَنْ يَسْقِيَ مَاشِيَتَهُ، فَلِذَلِكَ احْتَجْنَا – وَنَحْنُ امْرَأَتَانِ ضَعِيفَتَانِ – أَنْ نَسْقِيَ الْغَنَمَ لِعَدَمِ وُجُودِ رَجُلٍ يَقُومُ لَنَا بِذَلِكَ!.

فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَى كَلَامَهُمَا؛ سَقَى لَهُمَا. قِيلَ: أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا رَجَعُوا بِأَغْنَامِهِمْ غَطَّوْا رَأْسَ الْبِئْرِ بِحَجَرٍ لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَرَةُ نَفَرٍ! فَجَاءَ مُوسَى وَرَفَعَ الْحَجَرَ وَحْدَهُ، وَسَقَى غَنَمَ الْمَرْأَتَيْنِ!.[9]

ثُمَّ بَعْدَ أَنْ سَقَى مُوسَى لِلْمَرْأَتَيْنِ مَاشِيَتَهُمَا، انْصَرَفَ إِلَى الظِّلِّ[10]، ثُمَّ قَالَ – لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْجُهْدِ وَالتَّعَبِ – مُنَادِيًا لِرَبِّهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾أَيْ: إِنِّي لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ: قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، غَثٍّ أَوْ سَمِينٍ؛ لَمُحْتَاجٌ!.

وَأَمَّا الْمَرْأَتَانِ؛ فَذَهَبَتَا إِلَى أَبِيهِمَا، فَحَدَّثَتَاهُ بِمَا كَانَ مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي سَقَى لَهُمَا؛ فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ فَتَدْعُوهُ!.

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا مُسْتَحْيِيَةً فِي مَشْيِهَا، تَمْشِي غَيْرَ مُتَبَخْتِرَةٍ وَلَا مُتَثَنِّيَةٍ وَلَا مُظْهِرَةٍ زِينَةً، فَقَالَتْ لِمُوسَى: ﴿إِنَّ أَبِي[11] يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾أَيْ: لَا لِيَمُنَّ عَلَيْكَ، بَلْ أَنْتَ الَّذِي ابْتَدَأْتَنَا بِالْإِحْسَانِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ أَنْ يُكَافِئَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ.

فَأَجَابَهَا مُوسَى وَذَهَبَ مَعَهَا إِلَى أَبِيهَا، وَذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَمَا جَرَى لَهُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ مِنْ بَلَدِهِ، فَطَمْأَنَهُ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ بِأَنَّهُ يُزِيلُ عَنْ نَفْسِهِ الْخَوْفَ؛ لِأَنَّهُ أَصْبَحَ فِي مَأْمَنٍ مِنْ أَنْ يَنَالَهُ حُكْمُ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِفِرْعَوْنَ سُلْطَانٌ عَلَى مَدْيَنَ!.

---

[9] وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ بَيَانُ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ الْمَرْأَةَ وَصَفَتْ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِالْقُوَّةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا شَاهَدَتْ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ قُوَّتِهِ!.

[10] وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ**﴾؛ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ سَقَى لَهُمَا فِي شَمْسٍ وَحَرٍّ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ – أَيْضًا – عَلَى كَمَالِ قُوَّةِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –.

[11] **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى:** صَاحِبُ مَدْيَنَ الَّذِي تَزَوَّجَ مُوسَى ابْنَتَهُ؛ لَيْسَ هُوَ شُعَيْبًا كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ!! بَلْ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السَّلَفِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَيْسَ شُعَيْبًا؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

قَالَتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَا الرَّجُلِ: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ لِرَعْيِ الْغَنَمِ وَسَقْيِهَا، فَإِنَّهُ خَيْرُ مَنْ يُسْتَأْجَرُ لِلْعَمَلِ؛ لِقُوَّتِهِ عَلَى الْعَمَلِ وَأَمَانَتِهِ.

رَغِبَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ فِي مُصَاهَرَةِ مُوسَى؛ لِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ ابْنَتهُ؛ وَلِمَا رَأَى فِيهِ مِنْ عُزُوفِهِ عَنِ الدُّنْيَا، وَتَعَلُّقِهِ بِاللهِ، وَفِرَارِهِ مِنَ الْكَفَرَةِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُزَوِّجَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَرْعَى غَنَمِي ثَمَانِيَ سِنِينَ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرَ سِنِينَ فَذَلِكَ تَفَضُّلٌ مِنْكَ وَتَبَرُّعٌ، وَلَيْسَ مِمَّا اشْتَرَطْتُهُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ تَزْوِيجِكَ ابْنَتِي، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ بِإِلْزَامِكَ إِتْمَامَ الْعَشْرَةِ الْأَعْوَامِ، سَتَجِدُنِي – إِنْ شاءَ اللهُ – مِنَ الصَّالِحِينَ فِي حُسْنِ الصُّحْبَةِ وَالْوَفَاءِ.

قَالَ مُوسَى لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ: الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ثَمَانِ سِنِينَ، فَإِنْ أَتْمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِي، فَأَنَا مَتَى فَعَلْتُ أَقَلَّهُمَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الْعَهْدِ، وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّرْطِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾أَيْ: فَلَا حَرَجَ عَلَيَّ؛ سَوَاء قَضَيْت الثَّمَانِي الْوَاجِبَة، أَمْ تَبَرَّعْت بِالزَّائِدِ عَلَيْهَا.

ومُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِكَرَمِ طَبْعِهِ – فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجَلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا؛ وَهُوَ الْعَشْرُ سِنِينَ كَوَامِلَ تَامَّةً.[12]

فَلَمَّا وَفَّى مُوسَى صَاحِبَهُ الْأَجَلَ الَّذِي فَارَقَهُ عَلَيْهِ، عِنْدَ إِنْكَاحِهِ إِيَّاهُ ابْنَتَهُ؛ اشْتَاقَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَهْلِهِ وَوَالِدَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَوَطَنِهِ، وَقَدْ طَالَتْ مُدَّةُ جِنَايَتِهِ بِمِصْرَ، وَرَجَا خَفَاءَ أَمْرِهِ، فَسَارَ بِأَهْلِهِ قَاصِدًا مِصْرَ، فَأَلْجَأَهُ الْمَسِيرُ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْغَرْبِيِّ الْأَيْمَنِ، فَرَأَى نَارًا مَكْشُوفَةً تُضِيءُ لَهُ عَلَى بُعْدٍ، فَقَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ: تَمَهَّلُوا وَانْتَظِرُوا! إِنِّي أَبْصَرْتُ نَارًا، سَأَذْهَبُ إِلَيْهَا، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْ عِنْدِ النَّارِ بِخَبَرٍ؛ أَوْ أَلْقَى مَنْ يَهْدِينِي إِلَى الطَّرِيقِ وَيَدُلُّنِي عَلَيْهَا – لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَلُّوا الطَّرِيقَ – أَوْ آتِيكُمْ بِقِطْعَةٍ وَشُعْلَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَسْتَدْفِئُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ.

---

[12] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَأَلَ جِبْرِيلَ: أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «**أَتَمَّهُمَا وَأَكْمَلَهُمَا**» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ، وَغَيْرُهُ؛ وَصَحَّحَهُ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ(١٨٨٠)، وَصَحِيحِ الْجَامِعِ(٥٩٠٤)].

فَلَمَّا أَتَى النَّارَ مُوسَى وَاقْتَرَبَ مِنهَا؛ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَقَدْ بَيَّنَ هُنَا أَنَّهُ نُودِيَ مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَدَلَّتِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّ الشَّجَرَةَ الَّتِي رَأَى فِيهَا النَّارَ عَنْ يَمِينِ الْجَبَلِ الَّذِي هُوَ الطُّورُ، وَفِي يَمِينِ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ الَّذِي هُوَ طُوًى.

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مَعْنَى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾أَيِ: الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيْ: وَبُورِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَهَا، وَبُورِكَ مُوسَى؛ لِأَنَّهُ حَوْلَهَا مَعَهُمْ.

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾أَيِ: الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيُخَاطِبُكَ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ[١٣] إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾أَيِ: الْمُطَهَّرِ الْمُسَمَّى﴿طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾أَيْ: إِنِّي قَدِ اخْتَرْتُكَ لِلْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ فَاسْتَمِعِ الْآنَ إِلَى مَا أَقُولُهُ لَكَ وَأُوحِيهِ إِلَيْكَ: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾أَيْ: إِنَّنِي أَنَا الْمَعْبُودُ الَّذِي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَلَا تَعْبُدْ غَيْرِي، فَإِنَّهُ لَا مَعْبُودَ تَجُوزُ أَوْ تَصْلُحُ لَهُ الْعِبَادَةُ سِوَايَ. ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ يَا مُوسَى، أَيْ: وَحِّدْنِي وَقُمْ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْرِ شَرِيكٍ، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أَيْ: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتَذْكُرَنِي فِيهَا.

ثُمَّ أَعْلَمَهُ اللهُ – تَعَالَى – بِأَصْلٍ ثَانٍ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ بَعْدَ أَصْلِ التَّوْحِيدِ؛ وَهُوَ إِثْبَاتُ الْجَزَاءِ؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ الَّتِي يَبْعَثُ اللهُ فِيهَا الْخَلَائِقَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِمَوْقِفِ الْقِيَامَةِ

---

[١٣] قِيلَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ – أَيْ: نَزْعِهِمَا مِنْ قَدَمَيْهِ –؛ لِيُعَلِّمَهُ التَّوَاضُعَ لِرَبِّهِ حِينَ نَادَاهُ، فَإِنَّ نِدَاءَ اللهِ لِعَبْدِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ يَسْتَوْجِبُ مِنَ الْعَبْدِ كَمَالَ التَّوَاضُعِ وَالْخُضُوعِ، وَاللهُ – تَعَالَى – أَعْلَمُ [أَضْوَاءُ الْبَيَانِ؛ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ].

وَقِيلَ: أَمَرَهُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ؛ لِيُبَاشِرَ بِقَدَمَيْهِ بَرَكَةَ الْوَادِي، إِذْ كَانَ وَادِيًا مُقَدَّسًا [تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ].

﴿آتِيَةٌ﴾ لَا مَحَالَةَ، وَكَائِنَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾أَيْ: لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فَلَا يَصْرِفَنَّكَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالسَّاعَةِ، ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾أَيْ: فَتَهْلِكَ إِنْ أَنْتَ انْصَدَدْتَ عَنِ التَّأَهُّبِ لِلسَّاعَةِ، وَعَنِ الْإِيمَانِ بِهَا!.

ثُمَّ قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لِكَلِيمِهِ مُوسَى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾؟ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى مُجِيبًا لِرَبِّهِ: ﴿هِيَ عَصَايَ[14] أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا إِذَا مَشَيْتُ وَإِذَا أَعْيَيْتُ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾، أَضْرِبُ بِهَا الشَّجَرَةَ؛ لِيَسْقُطَ وَرَقُهَا عَلَى غَنَمِي فَتَأْكُلُهُ! ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ حَاجَاتٌ وَمَنَافِعُ أُخْرَى.

ثم أَمَرَ اللهُ – تَعَالَى – مُوسَى بِإِلْقَاءِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِهِ، فَقَالَ: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ فَأَلْقَاهَا مُوسَى عَلَى الْأَرْضِ؛ فَانْقَلَبَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً هَائِلَةً فِي غَايَةِ الْكِبَرِ!! ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ بِشِدَّةٍ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ الْجَانُّ: ذَكَرُ الْحَيَّاتِ؛ وَهُوَ شَدِيدُ الِاهْتِزَازِ!.

فَلَمَّا عَايَنَ مُوسَى ذَلِكَ؛ خَافَ وَفَزِعَ وَوَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ؛ لِأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ.

فَنَادَاهُ رَبُّهُ: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ مِنْ هَذِهِ الْحَيَّةِ، ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ – تَعَالَى – أَنْ يُمْسِكَهَا: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾أَيْ: سَنُعِيدُهَا لِهَيْئَتِهَا الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ نُصَيِّرَهَا حَيَّةً، وَنَرُدَّهَا عَصًا كَمَا كَانَتْ.

ثُمَّ قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فَأَدْخَلَ مُوسَى يَدَهُ فِي

---

[14] قِيلَ: سَأَلَهُ اللهُ عَمَّا بِيَدِهِ؛ لِيُوقِنَ أَنَّهُ مُمْسِكٌ بِعَصَاهُ، حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً لَمْ يَشُكَّ فِي أَنَّ تِلْكَ الْحَيَّةَ هِيَ الَّتِي كَانَتْ عَصَاهُ.

جَيْبِهِ[١٥]، ثُمَّ أَخْرَجَهَا؛ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ؛ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا بَرَصٍ!.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ[١٦]﴾ يَعْنِي: – إِلْقَاءَهُ الْعَصَا وَجَعْلَهَا حَيَّةً تَسْعَى، وَإِدْخَالَهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ – دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَى هَذَا الْأَمْرُ الْعَجِيبُ عَلَى يَدَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أَيْ: وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أَيْ: خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، مُخَالِفِينَ لِدِينِ اللهِ.

ثم أَمَرَ اللهُ – تَعَالَى – مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ:

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾.

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، فِي جَوَابِهِ لِرَبِّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – حِينَ أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى عَدُوِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْ سَطْوَتِهِ وَظُلْمِهِ، حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ فِي قَتْلِ ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أَي: اجْعَلْهُ مَعِي مُعِينًا وَوَزِيرًا يُسَاعِدُنِي، وَيُعِينُنِي عَلَى أَدَاءِ رِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا وَأَبْلَغُ بَيَانًا.

﴿قَالَ﴾ اللهُ – تَعَالَى – مُجِيبًا لَهُ إِلَى سُؤَالِهِ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أَيْ: سَنُقَوِّيكَ بِهِ ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أَيْ: فَلَا يَنَالُونَ مِنْكُمَا مَكْرُوهًا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بِسَبَبِ قِيَامِكُمَا بِآيَاتِنَا، وَقِيلَ: بِبَرَكَةِ آيَاتِنَا ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

---

[١٥] جَيْبُ الْقَمِيصِ وَنَحْوِهِ: مَا يَنْفَتِحُ عَلَى النَّحْرِ، وَيُدْخَلُ مِنْهُ الرَّأْسُ عِنْدَ لُبْسِهِ.

[١٦] وَأَرَاهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ آيَةَ الْعَصَا وَالْيَدِ؛ لِيَسْتَأْنِسَ بِذَلِكَ قَبْلَ حُضُورِهِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَى الْعَصَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى صَارَتْ ثُعْبَانًا؛ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ، فَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَمَا انْقَلَبَتْ ثُعْبَانًا لَمَّا طَالَبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ بِآيَةٍ؛ لَكَانَ ذَلِكَ غَيْرَ لَائِقٍ، وَلِأَجْلِ هَذَا مُرِّنَ عَلَيْهَا فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ؛ لِيَكُونَ مُسْتَأْنِسًا غَيْرَ خَائِفٍ مِنْهَا حِينَ تَصِيرُ ثُعْبَانًا مُبِينًا [أَضْوَاءُ الْبَيَانِ؛ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ].

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طَهَ – مُخَاطِبًا مُوسَى –: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فـ﴿قَالَ﴾ مُوسَى سَائِلًا رَبَّهُ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾أَيْ: قَدْ أَجَبْنَاكَ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلْتَ، وَأَعْطَيْنَاكَ الَّذِي طَلَبْتَ!.

وَهَذَا مِنْ وَجَاهَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، حِينَ شَفَعَ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَى أَخِيهِ فَأَوْحَى إِلَيْهِ!.

وَهَذَا جَاهٌ عَظِيمٌ؛ قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – نَبِيَّهُ مُوسَى وَهَارُونَ – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –: أَنْ يَذْهَبَا لِفِرْعَوْنَ؛ فَقَالَ: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾أَيْ: جَاوَزَ الْحَدَّ: فِي كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ، وَظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ!. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾أَيْ: قُولَا لَهُ كَلَامًا لَطِيفًا سَهْلًا رَقِيقًا، لَيْسَ فِيهِ مَا يُغْضِبُ وَيُنَفِّرُ، ﴿لَعَلَّهُ﴾ بِسَبَبِ الْقَوْلِ اللَّيِّنِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ مَا يَنْفَعهُ فَيَأْتِيهِ، ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ مَا يَضُرّهُ فَيَتْرُكهُ؛ فَإِنَّ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ دَاعٍ لِذَلِكَ، وَالْقَوْلَ الْغَلِيظَ مُنَفِّرٌ عَنْ صَاحِبِهِ!.

وَقَدْ بَيَّنَ – جَلَّ وَعَلَا – الْمُرَادَ بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾وَهَذَا – وَاللهِ – غَايَةُ لِينِ الْكَلَامِ وَلَطَافَتِهِ وَرِقَّتِهِ – كَمَا تَرَى –!.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾أَيْ: نَخَافُ أَنْ يُعَجِّلَ بِعِقَابِنَا بِالْقَتْلِ – أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ – قَبْلَ أَنْ نُبَلِّغَهُ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ عَلَيْنَا ﴿قَالَ﴾ اللهُ لَهُمَا: ﴿لَا تَخَافَا﴾ مِنْهُ فـ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ﴾ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ ﴿وَأَرَى﴾ مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي! فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي وَبَعْدَ أَمْرِي! وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي!.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾أَيْ: فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا لَهُ: إِنَّا رَسُولَانِ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، أَرْسَلَنَا إِلَيْكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَخَلِّ عَنْهُمْ، وَأَطْلِقْهُمْ لَنَا يَذْهَبُونَ مَعَنَا حَيْثُ شَاءُوا، وَلَا تُعَذِّبْهُمْ.

وَالْعَذَابُ الَّذِي نَهَى اللهُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ: هُوَ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾أَيْ: بِدَلَالَةٍ وَبَيَانٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أَيْ: وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنِ اتَّبَعْتَ الْهُدَى.

فَلَمَّا أَتَيَا فِرْعَوْنَ؛ بَلَّغَاهُ مَا أُرْسِلَا بِهِ؛ مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ – تَعَالَى – وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يَفُكَّ أُسَارَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْضَتِهِ وَقَهْرِهِ وَسَطْوَتِهِ، وَيَتْرُكُهُمْ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ حَيْثُ شَاءُوا، وَيَتَفَرَّغُونَ لِتَوْحِيدِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ لَدَيْهِ.

فَتَكَبَّرَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ وَعَتَا وَطَغَى، وَنَظَرَ إِلَى مُوسَى بِعَيْنِ الِازْدِرَاءِ وَالنَّقْصِ! قَائِلًا لَهُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾أَيْ: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِي بَيْتِنَا وَعَلَى فِرَاشِنَا؟! وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِينِ؟! ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾يَعْنِي: أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ بِتَرْبِيَتِنَا إِيَّاكَ صَغِيرًا، وَإِحْسَانِنَا إِلَيْكَ تَتَقَلَّبُ فِي نِعْمَتِنَا؛ ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ، أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا!.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾أَيْ: فَعَلْتُهَا وَأَنَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ مِنَ الضَّالِّينَ، قَبْلَ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَيَّ، وَيَبْعَثَنِي رَسُولًا، ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ مُوسَى مُجِيبًا لِفِرْعَوْنَ عَمَّا امْتَنَّ بِهِ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾أَيْ: تَمُنُّ عَلَيَّ أَنْ رَبَّيْتَنِي، وَتَنْسَى أَنَّكَ قَدِ اسْتَعْبَدْتَ قَوْمِي!

فَجَعَلْتَهُمْ عَبِيدًا وَخَدَمًا، تُصَرِّفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ! أفَيَفي إِحْسَانُكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتَ إِلَى مَجْمُوعِهِمْ؟!.

أَيْ: لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَ بِهِمْ، فَمَنْ أُهِينَ قَوْمُهُ؛ ذُلَّ! فَتَعْبِيدُكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَحْبَطَ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ!!.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانَ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى مِنَ الْمُقَاوَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ وَالْمُنَاظَرَةِ، وَمَا أَقَامَهُ الْكَلِيمُ عَلَى فِرْعَوْنَ اللَّئِيمِ، مِنَ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ثُمَّ الْحِسِّيَّةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ – قَبَّحَهُ اللهُ – أَظْهَرَ جَحْدَ الصَّانِعِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْإِلَهُ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ مُعَانِدٌ، يَعْلَمُ أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ! وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ، الْإِلَهُ الْحَقُّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وَلِهَذَا قَالَ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ لِرِسَالَتِهِ، وَالْإِظْهَارِ أَنَّهُ مَا ثَمَّ رَبٌّ أَرْسَلَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ لِأَنَّهُمَا قَالَا لَهُ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمَا: وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي؟ فَأَجَابَهُ مُوسَى قَائِلًا: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾أَيْ: خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ وَإِلَهُهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا: الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ النَّيِّرَاتِ، وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ وَمَا فِيهِ مِنْ بِحَارٍ وَقِفَارٍ، وَجِبَالٍ وَأَشْجَارٍ، وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَثِمَارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْهَوَاءِ وَالطُّيُورِ، وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الْجَوُّ؛ الْجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ، خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ!. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ مِنْ أُمَرَائِهِ وَوُزَرَائِهِ، عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَى فِيمَا قَالَهُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾أَيْ: أَلَا تَعْجَبُونَ مِمَّا يَقُولُ هَذَا فِي زَعْمِهِ: أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي؟.

فـ﴿قَالَ﴾ مُوسَى مُخَاطِبًا لَهُ وَلَهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾أَيْ: خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ؛ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ فِرْعَوْنَ وَزَمَانِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ، وَلَا أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ، وَلَا يَحْدُثْ مِنْ غَيْرِ مُحْدِثٍ، وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ وَخَلَقَهُ رَبّ الْعَالَمِينَ!.

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَسْتَفِقْ فِرْعَوْنُ مِنْ رَقْدَتِهِ، وَلَا نَزَعَ عَنْ ضَلَالَتِهِ! بَلِ اسْتَمَرَّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَعِنَادِهِ وَكُفْرَانِهِ؛ فـ﴿قَالَ﴾لِجُلَسَائِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾أَيْ: إِنَّ رَسُولَكُمْ لَا عَقْلَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَدَّعِي أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي! فلم يَشْتَغِلْ موسَى بِالْجَوَابِ عَنْ مَا نَسَبَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْجُنُونِ، وَلَكِنِ اشْتَغَلَ بِتَأْكِيدِ الْحُجَّةِ؛ فَـ﴿قَالَ﴾: رَبُّكُمْ هُوَ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾أَيْ: هُوَ الْمُسَخِّرُ لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ، الْمُسَيِّرُ لِلْأَفْلَاكِ الدَّائِرَةِ، خَالِقُ الظَّلَامِ وَالضِّيَاءِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، رَبُّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخرِينَ، خَالِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْكَوَاكِبِ السَّائِرَةِ، وَالثَّوَابِتِ الْحَائِرَةِ، خَالِقُ اللَّيْلِ بِظَلَامِه، وَالنَّهَارِ بِضِيَائِهِ، وَالْكُلُّ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ سَائِرُونَ، وَفِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، يَتَعَاقَبُونَ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ وَيَدُورُونَ، فَهُوَ – تَعَالَى – الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ!!.

فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِالْأَمْرِ الَّذِي عَلِمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ، إِذْ كَانَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ مُلُوكِ مِصْرَ لَمْ يُجَاوِزْ مُلْكُهُمْ عَرِيشَ مِصْرَ! وَتَبَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ الَّذِيَ يَدْعُوهُمْ مُوسَى إِلَى عِبَادَتِهِ، هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي يَمْلِكُ الْمُلُوكَ، ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ حِينَئِذٍ – اسْتِكْبَارًا عَنِ الْحَقِّ، وَتَمَادِيًا فِي الْغَيِّ – لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾!! وَهَذَا شَأْنُ مَنْ قَهَرَتْهُ الْحُجَّةُ – وَفِيهِ كِبْرِيَاءُ – أَنْ يَنْصَرِفَ عَنِ الْجَدَلِ إِلَى التَّهْدِيدِ!! فَقَالَ لَهُ مُوسَى حِينَ تَوَعَّدَهُ بِالسِّجْنِ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾أَيْ: وَإِنْ جِئْتُكَ ﴿بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾أَيْ: يُبَيِّنُ لَكَ صِدْقَ مَا أَقُولُ – يَا فِرْعَوْنُ – وَحَقِيقَةَ مَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ؟ ﴿قَالَ﴾ لَهُ فِرْعَوْنُ: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ فَإِنَّا لَنْ نَسْجُنَكَ حِينَئِذٍ، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾أَيْ: إِنْ كُنْتَ مُحِقًّا

فِيمَا تَقُولُ، وَصَادِقًا فِيمَا تَصِفُ وَتُخْبِرُ. ﴿فَأَلْقَى﴾مُوسَى﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾أَيْ: ثُعْبَانٌ ظَاهِرٌ أَنَّهُ ثُعْبَانٌ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا تَخْيِيلَ، وَاضِحٌ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ وَالْعَظَمَةِ!.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾أَيْ: لِجَمِيعِ النَّاظِرِينَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ بَيَاضَهَا كَانَ وَاضِحًا بَيِّنًا، مُخَالِفًا لَوْنَ جِلْدِهِ بِصُورَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ لَوْنِ الْبَرَصِ!.

وَهَذَانِ هُمَا الْبُرْهَانَانِ اللَّذَانِ أَيَّدَهُ اللهُ بِهِمَا – وَهُمَا الْعَصَا وَالْيَدُ –، وَذَلِكَ مَقَامٌ أَظْهَرَ فِيهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ، الَّتِي بَهَرَ بِهَا الْعُقُولَ وَالْأَبْصَارَ، حِين أَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ؛ أَيْ: عَظِيمُ الشَّكْلِ، بَدِيعٌ فِي الضَّخَامَةِ وَالْهَوْلِ، وَالْمَنْظَرِ الْعَظِيمِ الْفَظِيعِ الْبَاهِرِ!!.[١٧]

وَهَكَذَا لَمَّا أَدْخَلَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – يَدَهُ فِي جَيْبِهِ وَاسْتَخْرَجَهَا؛ أَخْرَجَهَا وَهِيَ كَفِلْقَةِ الْقَمَرِ تَتَلَأْلَأُ نُورًا يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ!!.

ثُمَّ أَخْبَرَ – تعَالَى – عَنْ شَقَاءِ فِرْعَوْنَ، وَكَثْرَةِ جَهْلِهِ وَقِلَّةِ عَقْلِه، فِي تَكْذِيبِهِ بِآيَاتِ اللهِ، وَاسْتِكْبَارِهِ عَنِ اتِّبَاعِهَا، إِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى سِحْرٌ! وَإِنَّهُ يُرِيدُ بِهَا إِخْرَاجَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ أَرْضِهِمْ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾؟ ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾!.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾أَيْ: بَارِعٌ فِي السِّحْرِ، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ[١٨] بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾أَيْ: أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا، فَيُكْثِرَ

---

[١٧] قِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا شَاهَدَ ذَلِكَ وَعَايَنَهُ، أَخَذَهُ رَهبٌ شَدِيدٌ وَخَوْفٌ عَظِيمٌ؛ بِحَيْثُ إِنَّهُ حَصَلَ لَهُ إِسْهَالٌ عَظِيمٌ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فِي يَوْمٍ!!.

[١٨] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَوْلُهُ: ﴿**يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ**﴾ يَقُولُ: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِكُمْ إِلَى الشَّامِ بِقَهْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالسِّحْرِ، وَإِنَّمَا قَالَ: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ، فَجَعَلَ الْخِطَابَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ مِنَ الْقِبْطِ، وَالْمَعْنِيُّ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ؛ لِأَنَّ الْقِبْطَ كَانُوا قَدِ اسْتَعْبَدُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاتَّخَذُوهُمْ خَدَمًا لِأَنْفُسِهِمْ وَمَهَانًا، فَلِذَلِكَ قَالَ لَهُمْ: ﴿**يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ**﴾ وَهُوَ يُرِيدُ: أَنْ يُخْرِجَ خَدَمَكُمْ وَعَبِيدَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ.

وَإِنَّمَا قُلْتُ مَعْنَى ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ إِنَّمَا أَرْسَلَ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ يَأْمُرُهُ بِإِرْسَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ وَلِأَخِيهِ: ﴿**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ اهـ. قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: لِلَّهِ دَرُّكَ يَا ابْنَ جَرِيرٍ!

أَعْوَانَهُ وَأَنْصَارَهُ وَأَتْبَاعَهُ وَيَغْلِبَكُمْ عَلَى دَوْلَتِكُمْ، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ مِنْكُمْ، فَأَشِيرُوا عليَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ؟.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾أَيْ: أخِّرْهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تجمَعَ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ؛ يُقَابِلُونَهُ، وَيَأْتُونَ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ، فَتَغْلِبُهُ أَنْتَ وَتَكُونُ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّأْيِيدُ!.

ثُمَّ أَقْسَمَ لَيَأْتِيَنَّ مُوسَى بِسِحْرٍ مِثْلِ آيَاتِ اللهِ الَّتِي يَزْعُمُ هُوَ أَنَّهَا سِحْرٌ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾!.

ثُمَّ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا وَعَدَ مُوسَى بِأَنَّهُ سَيَأْتِي بِسِحْرٍ مِثْلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى – فِي زَعْمِهِ –؛ قَالَ لِمُوسَى: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ وَالْإِخْلَافُ: عَدَمُ إِنْجَازِ الْوَعْدِ.

أَيْ: يَوْمًا نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ؛ لِنُعَارِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿مَكَانًا سُوًى﴾أَيْ: مَكَانٌ وَسَطٌ تَسْتَوِي أَطْرَافُ الْبَلَدِ فِيهِ؛ لِيَتَمَكَّنَ جَمِيعُ النَّاسِ أَنْ يَحْضُرُوا.

وَكَانَ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ مَقَاصِدِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: أَنْ يُظْهِرَ آيَاتِ اللهِ وَحُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ جَهْرَةً بِحَضْرَةِ النَّاسِ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهِمْ وَمُجْتَمَعٍ لَهُمْ ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾أَيْ: مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فِي وَقْتِ اشْتِدَادِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ، فَيَكُونُ الْحَقُّ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَوْضَحَ!.

وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ أَمْرِهِمْ وَاضِحٌ، بَيِّنٌ، لَيْسَ فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ! وَلِهَذَا لَمْ يَطْلُبْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَيْلًا فِي ظَلَامٍ، بَلْ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ نَهَارًا جَهْرَةً؛ لِأَنَّهُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَقِينٍ بِأَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُ كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ الْقِبْطِ!!.

ثم انْصَرَفَ فِرْعَوْنُ مُدْبِرًا مِنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ؛ لِيُهَيِّئَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِمَّا تَوَاعَدَ عَلَيْهِ هُوَ وَمُوسَى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ فَجَاءَ فِرْعَوْنُ بِسَحَرَتِهِ لِلْمِيعَادِ؛ لِيَغْلِبَ نَبِيَّ اللهِ مُوسَى بِسِحْرِهِ فِي زَعْمِهِ!.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فَجَمَعَ فِرْعَوْنُ مَنْ كَانَ بِبِلَادِهِ مِنَ السَّحَرَةِ – وَكَانَتْ بِلَادُ مِصْرَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَمْلُوءَةً سَحَرَةً مَهَرَةً، فِي فَنِّهِمْ غَايَةٌ –، فَجُمِعُوا لَهُ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَاجْتَمَعَ مِنْهُمْ خلقٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِيرٌ!.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾؛ لِتَنْظُرُوا إِلَى مَا يَفْعَلُ الْفَرِيقَانِ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْغَلَبَةُ: لِمُوسَى، أَوْ لِلسَّحَرَةِ؟ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾أَيْ: كَيْ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ مُوسَى.

﴿وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ﴾ مُوسَى! ﴿قالَ﴾ فِرْعَوْنُ لَهُمْ: ﴿نَعَمْ﴾ لَكُمُ الْأَجْرُ عَلَى ذَلِكَ، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ مِنَّا.

وَتَقَدَّمَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – إِلَى السَّحَرَةِ؛ فَوَعَظَهُمْ، وَزَجَرَهُمْ عَنْ تَعَاطِي السِّحْرِ الْبَاطِلِ، الَّذِي فِيهِ مُعَارَضَةٌ لِآيَاتِ اللهِ وَحُجَجِهِ، فَقَالَ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾أَيْ: لَا تَنْصُرُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ بِسِحْرِكُمْ وَتُغَالِبُونَ الْحَقّ، وَتَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ، فَيَسْتَأْصِلَكُمْ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَخِيب سَعْيُكُمْ وَافْتِرَاؤُكُمْ ، فَلَا تُدْرِكُونَ مَا تَطْلُبُونَ مِنَ النَّصْرِ وَالْجَاهِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ، وَلَا تَسْلَمُونَ مِنَ عَذَابِ اللهِ!! وَكَلَامُ الْحَقِّ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي الْقُلُوبِ!.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ ارْتَفَعَ الْخِصَامُ وَالنِّزَاعُ بَيْنَ السَّحَرَةِ لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ مُوسَى، وَارْتَبَكُوا! وَلَعَلَّ مِنْ جُمْلَةِ نِزَاعِهِمْ؛ الِاشْتِبَاهُ فِي مُوسَى: هَلْ هُوَ عَلَى الْحَقِّ، أَمْ لَا؟.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾أَيْ: أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَأَخَاهُ – يَعْنُونَ: مُوسَى وَهَارُونَ – سَاحِرَانِ عَالِمَانِ

خَبِيرَانِ بِصِنَاعَةِ السِّحْرِ، يُرِيدَانِ – فِي هَذَا الْيَوْمِ – أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ، وَيَسْتَوْلِيَا عَلَى النَّاسِ، وَتَتْبَعَهُمَا الْعَامَّةُ، وَيُقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، فَيَنْتَصِرَا عَلَيْهِ وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾أَيْ: وَيَسْتَبِدَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ – وَهِيَ السِّحْرُ –؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ بِسَبَبِهَا، لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عَلَيْهَا، يَقُولُونَ: إِذَا غَلَبَ هَذَانِ؛ أَهْلَكَاكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَفَرَّدَا بِذَلِكَ، وَخَلَصَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾أَيِ: اجْتَمِعُوا كُلُّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا، وَأَلْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ لِتَبْهَرُوا الْأَبْصَارَ! وَتَغْلِبُوا هَذَا وَأَخَاهُ!!.

وَإِنَّمَا قَالُوا الْكَلَامَ الْأَوَّلَ؛ لِيَتَدَبَّرُوا وَيَتَوَاصَوْا، وَيَأْتُوا بِجَمِيعِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَكِيدَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالسِّحْرِ وَالْبُهْتَانِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ وَعَدَهُمْ وَمَنَّاهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا!! ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾أَيْ: مِنَّا وَمِنْهُ، أَمَّا نَحْنُ: فَقَدْ وَعَدَنَا هَذَا الْمَلِكُ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ، وَأَمَّا هُوَ: فَيَنَالُ الرِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ!.

وَهَيْهَاتَ! كَذَبَتْ – وَاللهِ – الظُّنُونُ، وَأَخْطَأَتِ الْآرَاءُ! أَنَّى يُعَارِض الْبُهْتَانُ وَالسِّحْرُ وَالْهَذَيَانُ الْآيَات الَّتِي أَجْرَاهَا الدَّيَّانُ عَلَى يَدَيْ عَبْدِهِ الْكَلِيمِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبُرْهَانِ، الَّذِي يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ وَتَحَارُ فِيهِ الْعُقُولُ وَالْأَذْهَانُ؟!!.

وَلَمَّا اصْطَفَّ السَّحَرَةُ وَوَقَفَ مُوسَى وَهَارُون – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – تُجَاهَهُمْ؛ قَالُوا لَهُ مُتَأَدِّبِينَ مَعَهُ: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ قَبْلَنَا، ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ﴾ مُوسَى لِلسَّحَرَةِ: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أَنْتُمْ مَا مَعَكُمْ أَوَّلًا، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾أَيْ: إِلَى مُوسَى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّحْرَ الَّذِي جَاءَ بِهِ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ تَخْيِيلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ!.

وَهَذَا الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ «طَهَ» – هَذِهِ – دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ «الْأَعْرَافِ»؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ خَيَّلُوا لِأَعْيُنِ النَّاظِرِينَ أَمْرًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾أَيْ: خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَتِنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَغْتَرُّوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ، فَأَوْحَى اللهُ – تَعَالَى – إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ يَا مُوسَى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾أَيِ: الْغَالِبُ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، وَقَالَ: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لَمَّا أَلْقَاهَا؛ صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً! وَأَقْبَلَتْ تَبْتَلِعُ كُلَّ مَا زَوَّرُوهُ وَافْتَعَلُوهُ مِنَ الْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ الَّتِي خَيَّلُوا لِلنَّاسِ أَنَّهَا تَسْعَى! فَجَعَلَتْ تَلَقَّفُهُ وَاحِدًا وَاحِدًا فِي أَسْرَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا!!.

وَأَمَّا السَّحَرَةُ؛ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُمْ وَحَيَّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ! وَاطَّلَعُوا عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي خَلَدِهِمْ وَلَا بَالِهِمْ وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ صِنَاعَاتِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ!! فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهُنَالِكَ؛ تَحَقَّقُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِسِحْرٍ وَلَا شَعْوَذَةٍ! وَلَا مِحَالٍ وَلَا خَيَالٍ، وَلَا زُورٍ وَلَا بُهْتَانٍ وَلَا ضَلَالٍ! بَلْ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ!!.

وَكَشَفَ اللهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةَ الْغَفْلَةِ، وَأَنَارَهَا بِمَا خَلَقَ فِيهَا مِنَ الْهُدَى وَأَرَاحَ عَنْهَا الْقَسْوَةَ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَخَرُّوا لَهُ سَاجِدِينَ، وَقَالُوا جَهْرَةً لِلْحَاضِرِينَ وَلَمْ يَخْشَوْا عُقُوبَةً وَلَا بَلْوَى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

لَمَّا رَأَى فِرْعَوْنَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ قَدْ أَسْلَمُوا وَأَشْهَرُوا ذِكْر مُوسَى وَهَارُونَ فِي النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْجَمِيلَةِ؛ أَفْزَعَهُ ذَلِكَ! وَرَأَى أَمْرًا بَهَرَهُ، وَأَعْمَى بَصِيرَتَهُ وَبَصَرَهُ!! وَكَانَ فِيهِ كَيْدٌ وَمَكْرٌ وَخِدَاعٌ، وَصَنْعَةٌ بَلِيغَةٌ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ! فَقَالَ مُخَاطِبًا لِلسَّحَرَةِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾أَيْ: صَدَّقْتُمُوهُ فِي أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ، وَآمَنْتُمْ بِاللهِ ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أَيْ: هَلَّا شَاوَرْتُمُونِي فِيمَا صَنَعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ بِحَضْرَةِ رَعِيَّتِي؟! ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ! وَأَبْرَقَ وَأَرْعَدَ! وَكَذَبَ فَأَبْعَدَ؛ قَائِلًا:

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾أَيْ: أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى، وَاتَّفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ وَعَلَى رَعِيَّتِي، لِتُظْهِرُوهُ؛ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تعلمُونَ﴾.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ فَرْدٍ عَاقِلٍ مَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ وَالْهَذَيَانِ!! بَلْ لَا يَرُوجُ مَثَلَهُ عَلَى الصِّبْيَانِ! فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ – وَغَيْرِهِمْ – يَعْلَمُونَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَرَهُ هَؤُلَاءِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرَهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحْرَ؟!.

ثُمَّ هُوَ لَمْ يَجْمَعْهُمْ وَلَا عِلْمَ بِاجْتِمَاعِهِمْ، حَتَّى كَانَ فِرْعَوْنُ هُوَ الَّذِي اسْتَدْعَاهُمْ، وَاجْتَبَاهُمْ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَوَادٍ سَحِيقٍ، وَمِنْ حَوَاضِرِ بِلَادِ مِصْرَ وَالْأَطْرَافِ، وَمِنَ الْمُدُنِ وَالْأَرْيَافِ!.

ثُمَّ أَخَذَ يَتَهَدَّدُهُمْ؛ فَقَالَ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾يَعْنِي: يَقْطَعُ الْيَدَ الْيُمْنَى وَالرِّجْلَ الْيُسْرَى وَعَكْسَهُ؛ كَمَا يُفْعَلُ بِالْمُفْسِدِ فِي الْأَرْضِ!! ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَلَيْسَ فِي الْإِهْلَاكِ أَقْوَى مِنْ ذَلِكَ!! أَيْ: لَيَجْعَلَنَّهُمْ مَثُلَةً وَنَكَالًا؛ لِئَلَّا يَقْتَدِيَ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ رَعِيَّتِهِ وَأَهْلِ مِلَّتِهِ!.

قُلْتُ: وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ!.[١٩]

وَقَالَ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾أَيْ: أَجْعَلُكُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ مَصْلُوبِينَ؛ زِيَادَةَ تَنْكِيلٍ بِهِمْ، وَإِفْرَاطًا فِي تَعْذِيبِهِمْ! ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾يَعْنِي: أَنَا، أَمْ رَبُّ مُوسَى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾يَعْنِي: فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّهَا السَّحَرَةُ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا لَكُمْ وَأَدْوَمُ: أَنَا، أَوْ مُوسَى؟.

وَعَلَى هَذَا فَهُوَ كَالتَّهَكُّمِ بِمُوسَى لِاسْتِضْعَافِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ يُطِعْهُ!.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾أَيْ: لَنْ نَخْتَارَكَ وَنُطِيعَكَ وَنَتْرُكَ مَا وَقَرَ فِي قُلُوبِنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يَعْنُونَ: لَا نَخْتَارُكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأْنَا مِنَ الْعَدَمِ، الْمُبْتَدِئِ خَلْقَنَا مِنَ الطِّينِ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ!.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾أَيْ: فَاصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ، وَافْعَلْ بِنَا مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ! ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾أَيْ: إِنَّمَا تَقْدِرُ أَنْ تُعَذِّبَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي تَفْنَى! بِخِلَافِ عَذَابِ اللهِ – لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ – فَإِنَّهُ دَائِمٌ عَظِيمٌ!!.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾أَيْ: إِنَّا أَقْرَرْنَا بِتَوْحِيدِ رَبِّنَا، وَصَدَّقْنَا بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى حَقٌّ ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾أَيْ: لِيَعْفُوَ لَنَا عَنْ ذُنُوبِنَا فَيَسْتُرَهَا عَلَيْنَا.

﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾الظَّاهِرُ – وَاللهُ أَعْلَمُ – أَنَّ مُوسَى لَمَّا وَعَظَهُمْ – كَمَا تَقَدَّمَ – فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أَثَّرَ مَعَهُمْ وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا كَبِيرًا؛ وَلِهَذَا تَنَازَعُوا بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ وَالْمَوْعِظَةِ! ثُمَّ إِنَّ فِرْعَوْنَ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ وَأَكْرَهَهُمْ

---

[١٩] قِيلَ: الظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ أَنَّ فِرْعَوْنَ – لَعَنَهُ اللهُ – صَلَبَهُمْ وَعَذَّبَهُمْ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ –.
وَقِيلَ: أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَأَنَّ اللهَ عَصَمَهُمْ مِنْهُ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ بِاللهِ – تَعَالَى –؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿**أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى –.

عَلَى الْمَكْرِ الَّذِي أَجْرَوهُ، وَلِهَذَا تَكَلَّمُوا بِكَلَامِ فِرْعَوْنَ السَّابِقِ قَبْلَ إِتْيَانِهِمْ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ فَجَرَوْا عَلَى مَا سَنَّهُ لَهُمْ وَأَكْرَهَهُمْ عَلَيْهِ، وَلَعَلَّ هَذِهِ النُّكْتَةَ الَّتِي قَامَتْ بِقُلُوبِهِمْ – مِنْ كَرَاهَتِهِمْ لِمُعَارَضَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَفِعْلِهِمْ مَا فَعَلُوا عَلَى وَجْهِ الْإِغْمَاضِ – هِيَ الَّتِي أَثَّرَتْ مَعَهُمْ وَرَحِمَهُمُ اللهُ بِسَبَبِهَا وَوَفَّقَهُمْ لِلْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ. ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾أَيْ: وَاللهُ خَيْرٌ مِنْكَ يَا فِرْعَوْنُ جَزَاءً لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَأَبْقَى عَذَابًا لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ!.

وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾أَيْ: لَا نُبَالِي بِمَا تَوَعَّدتَنَا بِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزُولُ، وَنَنْقَلِبُ بَعْدَهُ إِلَى رَبِّنَا، فَيُعْطِينَا مِنَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ مَا لَا يُحَدُّ، وَلَا يُوصَفُ!.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾مِنَ الْكُفْرِ وَالسِّحْرِ، وَغَيْرِهِمَا﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: مِنَ الْقِبْطِ، بِمُوسَى وَهَارُونَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ –.

وَقَالُوا لَهُ أَيْضًا: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾أَيْ: لَيْسَ لَنَا عِنْدَكَ ذَنْبٌ إِلَّا إِيمَانُنَا بِمَا جَاءَنَا بِهِ رَسُولُنَا، وَاتِّبَاعُنَا آيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾أَيِ: اصْبُبْهُ عَلَيْنَا حَتَّى يَفِيضَ وَيَغْمُرَنَا!.

طَلَبُوا أَبْلَغَ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ؛ اسْتِعْدَادًا مِنْهُمْ لِمَا سَيَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مِنْ عَدُوِّ اللهِ!! وَتَوْطِينًا لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى التَّصَلُّبِ فِي الْحَقِّ وَثُبُوتِ الْقَدَمِ عَلَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ قَالُوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: تَوَفَّنَا إِلَيْكَ حَالَ ثُبُوتِنَا عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرَ مُحَرِّفِينَ وَلَا مُبَدِّلِينَ وَلَا مَفْتُونِينَ.[٢٠]

وَقَالُوا أَيْضًا يَعِظُونَهُ وَيُخَوِّفُونَهُ بَأْسَ رَبِّهِ الْعَظِيمِ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾أَيْ: مُشْرِكًا، يَعْنِي: مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحُ، ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ حَيَاةً يَنْتَفِعُ بِهَا،

[٢٠] وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتَوَفَّنِي عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – غَيْرَ مُبَدِّلٍ وَلَا مُغَيِّرٍ وَلَا مَفْتُونٍ! وَأَنْ يُلْحِقَنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. آمِينَ

وَإِنَّمَا حَيَاتُهُ مَحْشُوَّة بِعَذَابِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنِ! الَّذِي لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَلَا يُفَتَّرُ عَنْهُ سَاعَةً وَاحِدَةً! يَسْتَغِيثُ فَلَا يُغَاثُ! وَيَدْعُو فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ!!.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾.

يَقُولُونَ لَهُ: فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ؛ فَكَانَ مِنْهُمْ!!.

ثُمَّ أَخْبَرَ تعَالَى عَنِ الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ – وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ – أَنَّهُمْ حَرَّضُوا مَلِكَهُمْ فِرْعَوْنَ عَلَى أَذِيَّةِ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، وَمُقَابَلَتِهِ بَدَلَ التَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ، بِالْكُفْرِ وَالرَّدِّ وَالْأَذَى!.

قَالُوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ يَعْنُونَ – قَبَّحَهُمُ اللهُ – أَنَّ دَعْوَتَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالنَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ؛ فَسَادٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِ الْقِبْطِ – لَعَنَهُمُ اللهُ –!.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾أَيْ: سَنَقْتُلُ الذُّكُورَ مِنْ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أَيْ: وَنَسْتَبْقِي نِسَاءَهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ لِلْخِدْمَةِ، فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؛ أَمِنَّا مِنْ كَثْرَتِهِمْ، وَكُنَّا مُسْتَخْدِمِينَ لِبَاقِيهِمْ، وَمُسَخِّرِينَ لَهُمْ عَلَى مَا نَشَاءُ مِنَ الْأَعْمَالِ، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ لَا خُرُوجَ لَهُمْ عَنْ حُكْمِنَا، وَلَا قُدْرَةَ؛ وَهَذَا نِهَايَةُ الْجَبَرُوتِ – مِنْ فِرْعَوْنَ – وَالْعُتُوِّ وَالْقَسْوَةِ!!.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ مِنْ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَكَانَ لِأَجْلِ الِاحْتِرَازِ مِنْ وُجُودِ مُوسَى، أَوْ: لِإِذْلَالِ هَذَا الشَّعْبِ وَتَقْلِيلِ عَدَدِهِمْ، أَوْ: لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ!.

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي: فَلِلْعِلَّةِ الثَّانِيَةِ؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِ أَبْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ؛ لِئَلَّا يَنْشَئُوا عَلَى دِينِ مُوسَى فَيَقْوَى بِهِمْ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْبَنِينَ دُونَ الْبَنَاتِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ أَمَرَ بِقَتْلِ الْأَبْنَاءِ؛

وَلَكِنْ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾أَيْ: وَمَا مَكْرُهُمْ وَقَصْدُهُمْ – الَّذِي هُوَ تَقْلِيلُ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِئَلَّا يُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ –؛ إِلَّا ذَاهِبٌ وَهَالِكٌ فِي ضَلَالٍ!!.

﴿وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ﴾أَيِ: اعْتَمِدُوا عَلَيْهِ فِي جَلْبِ مَا يَنْفَعُكُمْ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّكُمْ، وَثِقُوا بِاللهِ، أَنَّهُ سَيُتِمُّ أَمْرَكُمْ ﴿وَاصْبِرُوا﴾أَيْ: إِذَا هَمُّوا هُمْ بِأَذِيَّتِكُمْ وَالْفَتْكِ بِكُمْ؛ فَاسْتَعِينُوا أَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ وَاصْبِرُوا عَلَى بَلِيَّتِكُمْ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ – لَيْسَتْ لِفِرْعَوْنَ وَلَا لِقَوْمِهِ حَتَّى يَتَحَكَّمُوا فِيهَا – ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾أَيْ: فَكُونُوا أَنْتُمُ الْمُتَّقِينَ؛ لِتَكُونَ لَكُمُ الْعَاقِبَةُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾أَيْ: قَدْ كَانَتِ الْأَبْنَاءُ تُقْتَلُ قَبْلَ مَجِيئِكَ وَبَعْدَ مَجِيئِكَ إِلَيْنَا، ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: هَلْ تَشْكُرُونَ، أَمْ تَكْفُرُونَ؟.

وَلَمَّا آمَنَتِ السَّحَرَةُ، وَرَجَعَ فِرْعَوْنُ مَغْلُوبًا؛ أَبَى هُوَ وَقَوْمُهُ إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّمَادِي فِي الشَّرِّ، فَتَابَعَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾أَيْ: بِالْجُدُوبِ وَالْقَحْطِ ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وَهِيَ قِلَّةُ الثِّمَارِ مِنَ الْأَشْجَارِ؛ بِسَبَبِ عَدَمِ نُزُولِ الْمَطَرِ وَكَثْرَةِ الْعَاهَاتِ! ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾أَيْ: لِأَجْلِ أَنْ يَتَّعِظُوا وَيَنْزَجِرُوا عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَيَفْزَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالتَّوْبَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحْوَالَ الشِّدَّةِ تُرَقِّقُ الْقَلْبَ وَتُرَغِّبُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَرْتَدِعُوا؛ بَلْ تَمَرَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ!!.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾أَيْ: فَإِذَا جَاءَتْ آلَ فِرْعَوْنَ الْعَافِيَةُ وَالْخَصْبُ وَالرَّخَاءُ وَكَثْرَةُ الثِّمَارِ ، وَرَأَوْا مَا يُحِبُّونَ فِي دُنْيَاهُمْ؛ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾أَيْ: هَذِهِ الْحَسَنَةُ حَقٌّ لَنَا، نَحْنُ أَهْلُهَا وَمُسْتَحِقُّوهَا؛ وَلَا يَرَوْنَ تِلْكَ الْحَسَنَةَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً!!.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾يُرِيدُ: الْقَحْطَ وَالْجَدْبَ وَالْمَرَضَ وَالضُّرَّ وَالْبَلَاءَ؛ وَكُلّ مَا يَكْرَهُونَ؛ ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ يَتَشَاءَمُوا ﴿بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وَقَالُوا: مَا أَصَابَنَا بَلَاءٌ حَتَّى رَأَيْنَاهُمْ! فَهَذَا مِنْ شُؤْمِ مُوسَى وَقَوْمِهِ!!.

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾أَيْ: أَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَهُوَ بِقَضَاءِ اللهِ – تَعَالَى – وَبِتَقْدِيرِهِ، لَيْسَ بِسَبَبِ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ!. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾أَنَّ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْقَحْطِ وَالشَّدَائِدِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – بِذُنُوبِهِمْ لَا مِنْ عِنْدِ مُوسَى وَقَوْمِهِ.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾أَيْ: قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ! فَمَهْمَا جِئْتَ بِآيَةٍ؛ جَزَمْنَا أَنَّهَا سِحْرٌ! فَلَا نُؤْمِنُ لَكَ وَلَا نُصَدِّقُ؛ وَهَذَا غَايَةُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِنَادِ، أَنْ يَبْلُغَ بِالْكَافِرِينَ إِلَى أَنْ تَسْتَوِيَ عَنْدَهُمُ الْحَالَات، سَوَاءٌ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْآيَات أَمْ لَمْ تَنْزِلْ!. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ الَّذِي أَغْرَقَ أَشْجَارَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ ، وَأَضَرَّ بِهِمْ ضَرَرًا كَثِيرًا.[21] ﴿وَ﴾أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴿الْجَرَادَ﴾فَأَكَلَ ثِمَارَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ، وَنَبَاتَهُمْ.

﴿وَ﴾أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴿الْقُمَّلَ﴾ قِيلَ: هِيَ الدَّبَا، وَالدَّبَا: الْجَرَادُ قَبْلَ أَنْ تَطِيرَ، وَقِيلَ: هِيَ السُّوسُ، وَقِيلَ: الْبَرَاغِيثُ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. ﴿وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ﴾عَلَامَاتٌ وَدَلَالَاتٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُوسَى، وَحَقِيقَة مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، ﴿مُفَصَّلَاتٌ﴾قَدْ فُصِلَ بَيْنَهَا؛ فَجَعَلَ بَعْضَهَا يَتْلُو بَعْضًا، وَبَعْضَهَا فِي إِثْرِ بَعْضٍ ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾!.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ[22]﴾أَيْ: وَلَمَّا نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ، وَحَلَّ بِهِمْ سَخَطُهُ؛ ﴿قَالُوا﴾ لِمُوسَى: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾أَيْ: لَئِنْ رَفَعْتَ عَنَّا

---

[21] أَمَّا حَدِيثُ: «الطُّوفَانُ: الْمَوْتُ»؛ فَهُوَ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ! انْظُرِ: الضَّعِيفَةَ(٣٨٤٣)، وَضَعِيفَ الْجَامِعِ(٣٦٦٠).

[22] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّجْزُ كَانَ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ كَانَ عَذَابًا عَلَيْهِمْ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الرِّجْزُ كَانَ طَاعُونًا. وَلَمْ يُخْبِرْنَا اللهُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ؟ وَلَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَيِّ ذَلِكَ كَانَ خَبَرٌ، فَنُسَلِّمَ لَهُ.

فَالصَّوَابُ: أَنْ نَقُولَ فِيهِ كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ**﴾وَلَا نَتَعَدَّاهُ إِلَّا بِالْبَيَانِ!.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: لِلَّهِ دَرُّكَ يَا ابْنَ جَرِيرٍ!

الْعَذَابَ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾أَيْ: لَنُصَدِّقَنَّ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَدَعَوْتَ إِلَيْهِ وَلَنُقِرَّنَّ بِهِ لَكَ، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾فوَعَدُوا مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَلَى دُعَائِهِ بِكَشْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمُ، الْإِيمَانَ بِهِ وَالتَّخْلِيَةَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِرْسَالَهُمْ مَعَهُ يَذْهَبُ بِهِمْ أَيْنَ شَاءَ؛ وَهُمْ فِي ذَلِكَ كَذَبَةٌ! لَا قَصْدَ لَهُمْ إِلَّا زَوَالُ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَظَنُّوا إِذَا رُفِعَ لَا يُصِيبهُمْ غَيْره!.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾أَيْ: فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ، فَأَجَابَهُ، فَلَمَّا رَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِهِمْ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ – لِيَسْتَوْفُوا عَذَابَ أَيَّامِهِمُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ لَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ أَجَلًا إِلَى وَقْتِ هَلَاكِهِمْ – ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدُوا عَلَيْهِ مُوسَى، وَوَعَدُوهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَإِرْسَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا آمَنُوا بِهِ، وَلَا أَرْسَلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ! بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَعَلَى تَعْذِيبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ دَائِبِينَ!!.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾أَيْ: فَلَمَّا نَقَضُوا عُهُودَهُمْ؛ انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ!.

وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُ السَّحَرَةِ، وَغَلَبَ مُوسَى وَقَوِيَ أَمْرُهُ؛ وَعَدَهُ فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَقَامَ مُوسَى عَلَى وَعْدِهِ حَتَّى غَدَرَهُ فِرْعَوْنُ وَنَكَثَ! وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَا يُرْسِلُهُمْ مَعَهُ، فَبَعَثَ اللهُ حِينَئِذٍ الْآيَاتِ: الْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ إِلَى آخِرِهَا، كُلَّمَا جَاءَتْ آيَةٌ وَعَدَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِنْدَ انْكِشَافِ الْعَذَابِ، فَإِذَا انْكَشَفَ؛ نَكَثَ حَتَّى تَأْتِيَ أُخْرَى، فَإِذَا انْكَشَفَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْآيَةُ؛ عَادُوا إِلَى شَرٍّ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَأَعْرَضُوا عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ!! فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً أُخْرَى هِيَ أَشَدُّ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَهَا وَأَقْوَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ فَكَانَ مَوْقِفُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، أَنَّهُمْ: يَقُولُونَ وَيَكْذِبُونَ! وَيَعِدُونَ وَلَا يَفُونَ: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾! فَيُكْشَفُ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْوَبِيلُ؛ ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى جَهْلِهِمُ الْعَرِيضِ الطَّوِيلِ!!.

۞۞۞۞۞

﴿ذِكْرُ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ﴾

فَلَمَّا تَمَادَى قِبْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ – مُتَابَعَةً لِمَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَمُخَالَفَةً لِنَبِيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –؛ أَقَامَ اللهُ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ الْحُجَجَ الْعَظِيمَةَ الْقَاهِرَةَ! وَأَرَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا بَهَرَ الْأَبْصَارَ وَحَيَّرَ الْعُقُولَ! وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْعَوُونَ وَلَا يَنْتَهُونَ! وَلَا يَنْزِعُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ! وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَاتِ –؛ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، مِنَ الذُّرِّيَّةِ – وَهُمُ الشَّبَابُ –، عَلَى وَجَلٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَمِنْ مَلَئِهِ، أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ! وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَةٌ وَمَهَابَةٌ، تَخَافُ رَعِيَّتُهُ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا!!.

ثُمَّ قَالَ اللهُ – تَعَالَى – مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ – وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا –: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾أَيْ: جَبَّارٍ عَنِيدٍ مُشْتَغِلٍ بِغَيْرِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَبْدًا فَادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ!!.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾أَي: الْمُتَجَاوِزِينَ لِلْحَدِّ؛ فِي الْكُفْرِ، وَفِي الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، وَفِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُئُونِهِ وَأَحْوَالِهِ!.

وَلَكِنَّهُ جُرْثُومَةٌ قَدْ حَانَ اسْتِئْصَالُهَا! وَثَمَرَةٌ خَبِيثَةٌ قَدْ آنَ قِطَافُهَا! وَمُهْجَةٌ مَلْعُونَةٌ قَدْ حُتِمَ إِتْلَافُهَا!!.

وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾أَيْ: فَإِنَّ اللهَ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

وَقَدِ امْتَثَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: مَوْضِعَ فِتْنَةٍ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَالْمَعْنَى: لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيُعَذِّبُونَا حَتَّى يَفْتِنُونَا عَنْ دِينِنَا ، وَلَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لَهُمْ يَفْتِنُونَ بِنَا غَيْرَنَا، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقٍّ لَمَا سُلِّطْنَا عَلَيْهِمْ وَعَذَّبْنَاهُمْ!.

وَلَمَّا قَدَّمُوا التَّضَرُّعَ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ – فِي أَنْ يَصُونَ دِينَهُمْ عَنِ الْفَسَادِ أَتْبَعُوهُ بِسُؤَالِ عِصْمَةِ أَنْفُسِهِمْ[٢٣]؛ فَقَالُوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾أَيْ: وَنَجِّنَا – يَا رَبَّنَا – بِرَحْمَتِكَ، فَخَلِّصْنَا مِنْ أَيْدِي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ – قَوْمِ فِرْعَوْنَ –؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْبِدُونَهُمْ، وَيَسْتَعْمِلُونَهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ الْقَذِرَةِ مِنْ خِدْمَتِهِمْ؛ فَجَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ فَرَجًا وَمَخْرَجًا!.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ هَارُونَ – حِينَ اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى قَوْمِهِمَا، مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَحَرِصُوا عَلَى فِتْنَتِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ – ﴿أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ، وَكَأَنَّ هَذَا – وَاللهُ أَعْلَمُ – لَمَّا اشْتَدَّ بِهِمُ الْبَلَاءُ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ، أُمِرُوا بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِهِمْ سِرًّا؛ لِئَلَّا يُصِيبَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ مَكْرُوهٌ بِسَبَبِ الصَّلَاةِ. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ فَإِنَّهَا مَعُونَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾أَيْ: بَشِّرْ – يَا مُوسَى – مَنْ آمَنَ مَعَكَ بِالثَّوَابِ وَالنَّصْرِ الْقَرِيبِ!.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾أَيْ: أَعْطَيْتَ ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾يَعْنِي: قَوْمَهُ مِنَ الْقِبْطِ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهِ وَدَانَ بِدِينِهِ﴿زِينَةً﴾يَتَزَيَّنُونَ بِهَا؛ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُلِيِّ وَالثِّيَابِ، وَالْبُيُوتِ الْمُزَخْرَفَةِ ، وَالْمَرَاكِبِ الْفَاخِرَةِ، وَالْخُدَّامِ، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ عَظِيمَةً ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾أَيْ: إِنَّ أَمْوَالَهُمْ لَمْ يَسْتَعِينُوا بِهَا إِلَّا عَلَى الْإِضْلَالِ فِي سَبِيلِكَ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ!.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾الْمَعْنَى: الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَمْحَقَ اللهُ أَمْوَالَهُمْ وَيُهْلِكَهَا!.

---

[٢٣] وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَهُمُ اهْتِمَامٌ بِأَمْرِ الدِّينِ فَوْقَ اهْتِمَامِهِمْ بِسَلَامَةِ أَنْفُسِهِمْ [فَتْحُ الْقَدِيرِ؛ لِلشَّوْكَانِيِّ].

﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾أَيِ: قَسِّهَا وَاطْبَعْ عَلَيْهَا حَتَّى لَا تَقْبَلُ الْحَقَّ، وَلَا تَنْشَرِحُ لِلْإِيمَانِ!.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[٢٤]﴾أَيْ: لَا يَحْصُلُ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ إِلَّا مَعَ الْمُعَايَنَةِ لِمَا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِهِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ إِيمَانُهُمْ.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا[٢٥] فَاسْتَقِيمَا﴾عَلَى دِينِكُمَا، وَاسْتَمِرَّا عَلَى دَعْوَتِكُمَا، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾أَيْ: لَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الْجُهَّالِ الضُّلَّالِ، الْمُنْحَرِفِينَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الْمُتَّبِعِينَ لِطُرُقِ الْجَحِيمِ!.

وَحِينَ جَاءَ الْوَقْتُ الْمُحَدَّدُ لِهَلَاكِهِمْ؛ أَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ مُوسَى – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِرْعَوْنَ سَيَتْبَعُهُمْ بِجُنْدِهِ؛ لِيَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

ثُمَّ بَيَّنَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – كَيْفِيَّةَ اتِّبَاعِهِ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حِين أُخْبِرَ بِسَيْرِهِمْ ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾أَيْ: لَمَّا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ شُرَطًا يَجْمَعُونَ النَّاسَ؛ لِيَلْحَقُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ قَاعِدَةِ الْمُلْكِ!.

---

[٢٤] اسْتَشْكَلَ بَعْضُ النَّاسِ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ: كَيْفَ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَحُكْمُ الرُّسُلِ اسْتِدْعَاءُ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ؟!

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَدْعُوَ نَبِيٌّ عَلَى قَوْمِهِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ اللهِ، وَإِعْلَامٍ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ، دَلِيلُهُ: قَوْلُهُ لِنُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: ﴿**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**﴾ وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾، واللهُ أَعْلَمُ [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ].

[٢٥] جَعَلَ الدَّعْوَةَ هَاهُنَا مُضَافَةً إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ، وَفِيمَا تَقَدَّمَ أَضَافَهَا إِلَى مُوسَى وَحْدَهُ؛ فَقِيلَ: إِنَّ هَارُونَ كَانَ يُؤَمِّنُ عَلَى دُعَاءِ مُوسَى، فَسُمِّيَ هَاهُنَا دَاعِيًا، وَإِنْ كَانَ الدَّاعِي مُوسَى وَحْدَهُ، فَفِي أَوَّلِ الْكَلَامِ أَضَافَ الدُّعَاءَ إِلَى مُوسَى لِكَوْنِهِ الدَّاعِيَ، وَهَاهُنَا أَضَافَهُ إِلَيْهِمَا تَنْزِيلًا لِلْمُؤَمِّنِ مَنْزِلَةَ الدَّاعِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا جَمِيعًا دَاعِيَيْنِ، وَلَكِنْ أَضَافَ الدُّعَاءَ إِلَى مُوسَى فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ؛ لِأَصَالَتِهِ فِي الرِّسَالَةِ [فَتْحُ الْقَدِيرِ].

ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ لَدَيْهِ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ – يَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيلَ – ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾أَيْ: لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾أَيْ: أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ أَفْعَالًا تَغِيظُنَا وَتُضَيِّقُ صُدُورَنَا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾أَيْ: إِنَّا كُلُّنَا مُسْتَعِدُّونَ ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾أَيْ: أَخْرَجْنَا فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ مِنْ مِصْرَ؛ لِيَلْحَقُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾أَيْ: فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَى الْجَحِيمِ! وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ وَالْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ وَالْمُلْكَ وَالْجَاهَ الْوَافِرَ فِي الدُّنْيَا!.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾!.

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾أَيْ: أَدْرَكَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مُوسَى وَأَصْحَابَهُ أَوَّلَ النَّهَارِ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾أَيْ: تَقَابَلَا؛ بِحَيْثُ يَرَى كُلُّ فَرِيقٍ صَاحِبَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾أَيْ: إِنَّا لَمُلْحَقُونَ، الْآنَ يَلْحَقُنَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فَيَقْتُلُونَنَا!! ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ثِقَةً بِوَعْدِ اللهِ إِيَّاهُ: ﴿كَلَّا﴾أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ، أَنَّكُمْ مُدْرَكُونَ، فَلَنْ يُدْرِكُونَا! ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾أَيْ: سَيَهْدِينِ لِطَرِيقٍ أَنْجُو فِيهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ! وَاقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فِي جِدِّهِمْ وَحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ، وَغَضَبِهِمْ وَحَنَقِهِمْ! وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؛ عِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، إِلَى مُوسَى الْكَلِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾فَضَرَبَهُ﴿فَانفَلَقَ﴾فَانْشَقَّ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أَيْ: فَكَانَ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْبَحْرِ لَمَّا ضَرَبَهُ مُوسَى كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ!.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾يَعْنِي: وَقَرَّبْنَا ﴿ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾يَعْنِي: قَوْمَ فِرْعَوْنَ، يَقُولُ: قَدَّمْنَاهُمْ إِلَى الْبَحْرِ، وَقَرَّبْنَاهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ!!.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾أَيْ: أَنْجَيْنَا مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنْ مَعَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ فَلَمْ يَهْلَكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ! ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾وَأُغْرِقَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا هَلَكَ!!.

۞۞۞۞۞

【كَيْفَ غَرِقَ فِرْعَوْن؟】

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾أَيْ: جَعَلْنَاهُمْ مُجَاوِزِينَ الْبَحْرَ حَتَّى خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ، وَانْفَصَلُوا عَنْهُ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا سَمِعَ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ لَحِقَهُمْ بِجُنُودِهِ، فَفَرَقَ اللهُ الْبَحْرَ لِمُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَشَوْا فِيهِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَالْبَحْرُ بَاقٍ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا عِنْدَ مُضِيِّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، فَلَمَّا تَكَامَلَ دُخُولُهُمُ الْبَحْرَ وَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ؛ انْطَبَقَ الْمَاءُ عَلَيْهِمْ فَغَرِقُوا، كَمَا حَكَى اللهُ – سُبْحَانَهُ – ذَلِكَ.

﴿بَغْيًا وَعَدْوًا[٢٦] ﴾أَيْ: أَنَّ فِرْعَوْنَ لَحِقَ بِهِمْ؛ لِأَجْلِ الْبَغْيِ عَلَيْهِمْ وَالِاعْتِدَاءِ!.

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ[٢٧] الْغَرَقُ﴾أَيْ: غَمَرَهُ الْمَاءُ وَقَرُبَ هَلَاكُهُ، ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يَعْنِي: الْآنَ تُقِرُّ لِلَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ! وَتَسْتَسْلِمُ لَهُ بِالذِّلَّةِ! وَقَدْ أَضَعْتَ التَّوْبَةَ فِي وَقْتِهَا وَآثَرْتَ دُنْيَاكَ الْفَانِيَةَ عَلَى الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ!! وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ بِضَلَالِكَ عَنِ الْحَقِّ، وَإِضْلَالِكَ لِغَيْرِكَ! فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْنُ الْهَلَكَةَ وَأُحِيطَ بِهِ، وَبَاشَرَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ؛ أَنَابَ حِينَئِذٍ وَتَابَ، وَآمَنَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ

---

[٢٦] وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُهُ إِيَّاهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا؛ إِذْ لَيْسَ لَهُ فِيهِ شَائِبَةُ حَقٍّ؛ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرَادُوا مُفَارَقَةَ بِلَادِ فِرْعَوْنَ، وَلَيْسَتْ مُفَارَقَةُ أَحَدٍ بَلَدَهُ مَحْظُورَةً إِنْ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الْبَقَاءِ، فَإِنَّ لِذِي الْوَطَنِ حَقًّا فِي الْإِقَامَةِ فِي وَطَنِهِ، فَإِذَا رَامَ مُغَادَرَةَ وَطَنِهِ فَقَدْ تَخَلَّى عَنْ حَقٍّ لَهُ، وَلِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ حَقِّهِ...فَلَمَّا رَامَ فِرْعَوْنَ مَنْعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْخُرُوجِ وَشَدَّ لِلِّحَاقِ بِهِمْ لِرَدِّهِمْ كَرْهًا؛ كَانَ فِي ذَلِكَ ظَالِمًا مُعْتَدِيًا، لِأَنَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ إِكْرَاهَهُمْ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلِأَنَّ غَرَضَهُ مِنْ ذَلِكَ تَسْخِيرُهُمْ [التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ].

[٢٧] الْإِدْرَاكُ: اللِّحَاقُ وَانْتِهَاءُ السَّيْرِ. وَهُوَ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْغَرَقَ دَنَا مِنْهُ تَدْرِيجِيًّا بِهَوْلِ الْبَحْرِ وَمُصَارَعَتِهِ الْمَوْجَ! وَهُوَ يَأْمَلُ النَّجَاةَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يُظْهِرِ الْإِيمَانَ حَتَّى أَيِسَ مِنَ النَّجَاةِ وَأَيْقَنَ بِالْمَوْتِ؛ وَذَلِكَ لِتَصَلُّبِهِ فِي الْكُفْرِ! [الْمَرْجِعُ السَّابِقِ].

رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قَالَ: قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ! لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ حَالًا مِنْ حَالِ الْبَحْرِ[28]، فَدَسَّيْتُهُ[29] فِي فِيهِ؛ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ»، (وَفِي رِوَايَةٍ: خَشْيَةَ أَنْ يَرْحَمَهُ اللهُ).[30]
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾أَيْ: نُخْرِجُكَ مِنَ الْبَحْرِ وَأَنْتَ جِسْمٌ بِدُونِ رُوحٍ؛ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾أَيْ: لِتَكُونَ لِمَنْ بَعْدَكَ مِنَ النَّاسِ عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِكَ، فَيَنْزَجِرُونَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَالْكُفْرِ بِهِ وَالسَّعْيِ فِي أَرْضِهِ بِالْفَسَادِ.
﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾أَيْ: مُعْرِضُونَ عَنْ تَأَمُّلِ آيَاتِنَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا.
وَكَانَ هَلَاكُ فِرْعَونَ وَنَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ؛ وَهُوَ الْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ.
إِنَّهَا مُنَاسَبَةٌ عُظْمَى: نَجَاةُ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى مِنْ عَدُوِّ اللهِ فِرْعَوْنَ؛ نُصْرَةُ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَنَصْرُ جُنْدِ اللهِ وَإِهْلَاكُ جُنْدِ الشَّيْطَانِ!.
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ! أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ

---

[28] (الْحَالُ): الطِّينُ الْأَسْوَدُ.

[29] (فَدَسَّيْتُهُ فِي فِيهِ): أَدْخَلْتُهُ فِي فَمِهِ بِقَهْرٍ وَقُوَّةٍ.

[30] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ(٥٢٠٦)، وَانْظُرِ الصَّحِيحَةَ(٢٠١٥).

وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ»

فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ.[٣١]

۞۞۞۞۞

[٣١] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ – وَاللَّفْظُ لَهُ –، وَأَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ؛ وَغَيْرُهُمْ.

هَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ – وَهُوَ الصِّيَامُ – لَكِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ يَزِيدُونَ فِيهِ عَلَى الصِّيَامِ؛ فَالْيَهُودُ يَجْعَلُونَهُ يَوْمَ عِيدٍ يُزَيِّنُونَ فِيهِ بُيُوتَهُمْ، وَيُزَيِّنُونَ فِيهِ أَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَيَعْتَبِرُونَهُ يَوْم عِيدٍ، فَهُمْ زَادُوا فِيهِ عَلَى الْمَشْرُوعِ.

فَالزِّيَادَةُ عَلَى الصِّيَامِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ مِنْ دِينِ الْجَاهِلِيَّةِ!! [شَرْحُ مَسَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِابْنِ عُثَيْمِينَ].

وَالسُّنَّةُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصُومَ عَاشُورَاءَ، أَنْ يَصُومَ قَبْلَهُ يَوْمًا – وَهُوَ الْيَوْمُ التَّاسِعُ مِنْ شَهْرِ اللهِ الْمُحَرَّمِ –؛ لِحَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، يَقُولُ: حِينَ صَامَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى!! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ – إِنْ شَاءَ اللهُ – صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**» قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [حَدِيثٌ صَحِيحٌ : رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُ].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: «**خَالِفُوا الْيَهُودَ؛ وَصُومُوا يَوْمَ التَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ**» [أَثَرٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مَعَانِي الْآثَارِ، وَالطَّبَرِيُّ فِي تَهْذِيبِ الْآثَارِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْكُبْرَى، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ؛ وَقَالَ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ (الْأُمّ): إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ].

﴿فَصْلٌ فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ﴾

قَالَ اللهُ – تعَالَى –: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ قَدَّرْنَا لَهُمْ جَوَازَهُ وَيَسَّرْنَاهُ لَهُمْ ﴿فَأَتَوْا﴾أَيْ: فَمَرُّوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يُقِيمُونَ وَيُوَاظِبُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا فَـ﴿قَالُوا﴾ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَفَهِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ مُوسَى بَعْدَمَا أَرَاهُمُ اللهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا أَرَاهُمْ: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا[٣٢]﴾ صَنَمًا نَعْبُدُهُ ﴿كَمَا لَهُمْ﴾أَيْ: كَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ﴿آلِهَةٌ﴾ أَصْنَامٌ يَعْبُدُونَهَا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ شَكًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي وَحْدَانِيَّةِ اللهِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: اجْعَلْ لَنَا شَيْئًا نُعَظِّمُهُ وَنَتَقَرَّبُ بِتَعْظِيمِهِ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –! وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ الدِّيَانَةَ؛ وَكَانَ ذَلِكَ لِشِدَّةِ جَهْلِهِمْ!!.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾أَيْ: تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللهِ وَجَلَالَهُ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُنَزَّهَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمَثِيلِ، وَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الْعِبَادَةُ لِشَيْءٍ سِوَى اللهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ!.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الْعَاكِفِينَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مُهْلَكٌ! مُدَمَّرٌ! مُكَسَّرٌ! ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ وَهُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الدِّينَ – الَّذِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْهِ – هَالِكٌ مُدَمَّرٌ لَا يَتِمُّ مِنْهُ شَيْءٌ، ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾أَيْ: ذَاهِبٌ مُضْمَحِلٌّ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ مَعَ عِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ. أَيْ: هَذَا الْعَمَلُ الشَّاقُّ لَا يُفِيدُهُمْ نَفْعًا فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ!!.

---

[٣٢] عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى حُنَيْنٍ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ[كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «[سُبْحَانَ اللهِ!!] (وَفِي رِوَايَةٍ: اللهُ أَكْبَرُ!!) قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّهَا السُّنَنُ! لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُنَّةً سُنَّةً!!» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَحْمَدُ – وَاللَّفْظُ لَهُ –، وَالتِّرْمِذِيُّ – وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ لَهُ –، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ؛ وَغَيْرُهُمْ، وَصَحَّحَهُ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ (٢١٨٠)، وَالْمِشْكَاة(٥٤٠٨)].

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾أَيْ: كَيْفَ أَطْلُبُ لَكُمْ غَيْرَ اللهِ إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾أَيْ: وَالْحَالُ أَنَّهُ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِكُمْ؛ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّكُمْ، وَاسْتِخْلَافِكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَإِخْرَاجِكُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ إِلَى الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ، فَكَيْفَ تُقَابِلُونَ هَذِهِ النِّعَمَ بِطَلَبِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟!.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يُذَكِّرُهُمْ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ: مِنْ إِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهَوَانِ وَالذِّلَّةِ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالِاشْتِفَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ، وَغَرَقِهِ وَدَمَارِهِ!!.

۞۞۞۞۞

【مُوَاعَدَةُ اللهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ ونَجَّى مِنْهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ】

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى﴾ عِنْدَ انْطِلَاقِهِ إِلَى الْجَبَلِ لِلْمُنَاجَاةِ ﴿لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ وَهُوَ ابْنُ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَوَزِيرُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى مُصْطَفِيهِ: ﴿اخْلُفْنِي﴾ كُنْ خَلِيفَتِي ﴿فِي قَوْمِي﴾ إِلَى أَنْ أَرْجِعَ ﴿وَأَصْلِحْ﴾ وَأَصْلِحْهُمْ بِحَمْلِكَ إِيَّاهُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: لَا تُطِعْ مَنْ عَصَى اللهَ وَلَا تُوَافِقْهُ عَلَى أَمْرِهِ.

وَهَذَا تَنْبِيهٌ وَتَذْكِيرٌ؛ وَإِلَّا: فَهَارُونُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾أَيْ: أَسْمَعَهُ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ!.

وَهَذَا مَقَامٌ رَفِيعٌ وَمَعْقِلٌ مَنِيعٌ، وَمَنْصِبٌ شَرِيفٌ وَمَنْزِلٌ مُنِيفٌ! فَصَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ تَتْرَى، وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى.

﴿قَالَ﴾مُوسَى الْكَلِيمُ لِلرَّبِّ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ﴾ اللهُ لَهُ مُجِيبًا: ﴿لَنْ تَرَانِي[٣٣] وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا

---

[٣٣] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: الْجَوَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿**لَنْ تَرانِي**﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ لَا يَرَاهُ هَذَا الْوَقْتَ الَّذِي طَلَبَ رُؤْيَتَهُ فِيهِ، أَوْ: أَنَّهُ لَا يُرَى مَا دَامَ الرَّائِي حَيًّا فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأَمَّا رُؤْيَتُهُ فِي الْآخِرَةِ؛ فَقَدْ ثَبَتَتْ بِالْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ تَوَاتُرًا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُ السُّنَّةَ الْمُطَهَّرَةَ! وَالْجِدَالُ فِي مِثْلِ هَذَا وَالْمُرَاوَغَةُ لَا تَأْتِي بِفَائِدَةٍ!! وَمَنْهَجُ الْحَقِّ وَاضِحٌ، وَلَكِنَّ الِاعْتِقَادَ لِمَذْهَبٍ نَشَأَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَأَدْرَكَ عَلَيْهِ آبَاءَهُ وَأَهْلَ بَلَدِهِ، مَعَ عَدَمِ التَّنَبُّهِ لِمَا هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنَ الْعِبَادِ مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ؛ يُوقِعُ فِي التَّعَصُّبِ! وَالْمُتَعَصِّبُ وَإِنْ كَانَ بَصَرُهُ صَحِيحًا فَبَصِيرَتُهُ عَمْيَاءُ! وَأُذُنُهُ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ صَمَّاءُ! يَدْفَعُ الْحَقَّ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مَا دَفَعَ غَيْرَ الْبَاطِلِ!! وَيَحْسَبُ أَنَّ مَا نَشَأَ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ؛ غَفْلَةً مِنْهُ وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَرِ الصَّحِيحِ، وَتَلَقِّي مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بِالْإِذْعَانِ وَالتَّسْلِيمِ، وَمَا أَقَلَّ الْمُنْصِفِينَ بَعْدَ ظُهُورِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ!! فَإِنَّهُ صَارَ بِهَا بَابُ الْحَقِّ مُرْتَجًا، وَطَرِيقُ الْإِنْصَافِ مُسْتَوْعِرَةً، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ – سُبْحَانَهُ –، وَالْهِدَايَةُ مِنْهُ:

يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَى ... وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ!

تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾أيْ: فَلَمَّا اطَّلَعَ الرَّبُّ العظيمُ لِلْجَبَلِ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ جَعَلَ اللهُ الْجَبَلَ دَكًّا، أَيْ: مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ! ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾أَيْ: مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.[٣٤]

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ مُوسَى مِنْ صَعْقَتِهِ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ؛ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ سَأَلَ أَمْرًا لَا يَنْبَغِي لَهُ! فَ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ يَا رَبِّ وَتَبْرِئَةً أَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَا يُصْعَق!

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِنْ مَسْأَلَتِي إِيَّاكَ مَا سَأَلْتُكَ مِنَ الرُّؤْيَةِ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِكَ مِنْ قَوْمِي أَنْ لَا يَرَاكَ فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ إِلَّا صُعِقَ!.

۞۞۞۞۞

[٣٤] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿**وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾أَيْ: مَيِّتًا. وَالصَّحِيحُ مَا ذَكَرْنَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿**فَلَمَّا أَفَاقَ**﴾؛ فَإِنَّ الْإِفَاقَةَ إِنَّمَا تَكُونُ عَنْ إِغْمَاءٍ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ؛ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ! فَلَا أَدْرِي: أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟**» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ – وَاللَّفْظُ لَهُ –، وَمُسْلِمٌ؛ وَغَيْرُهُمَا].

﴿ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ بَعْدَ غِيَابِ كَلِيمِ اللهِ عَنْهُم﴾

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى[٣٥] مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيْ: بَعْدَ انْطِلَاقِهِ إِلَى الْجَبَلِ مَاضِيًا إِلَى رَبِّهِ؛ لِمُنَاجَاتِهِ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ[٣٦]﴾ صَوْتٌ كَصَوْتِ الْبَقَرِ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ﴾ يَعْنِي: أَلَمْ يَرَ الَّذِينَ عَكَفُوا عَلَى الْعِجْلِ الَّذِي اتَّخَذُوهُ مِنْ حُلِيِّهِمْ يَعْبُدُونَهُ أَنَّ الْعِجْلَ ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يَقُولُ: وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقٍ!.

وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي لَهُ الْعِبَادَةُ حَقًّا؛ بَلْ صِفَتُهُ: أَنَّهُ يُكَلِّمُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَيُرْشِدُ خَلْقَهُ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْمَهَالِكِ وَالرَّدَى.

﴿اتَّخَذُوهُ﴾ أَيِ: اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا ﴿وَكَانُوا﴾ بِاتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُ رَبًّا مَعْبُودًا ﴿ظَالِمِينَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ ؛ لِعِبَادَتِهِمْ غَيْرَ مَنْ لَهُ الْعِبَادَةُ! وَأَيُّ ظُلْمٍ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ مِنِ اتِّخَاذِ إِلَهٍ غَيْرِ اللهِ – تَعَالَى –؟!!.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: وَلَمَّا نَدِمُوا عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ[٣٧] عِنْدَ رُجُوعِ مُوسَى إِلَيْهِمْ ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ جَارُوا عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وَذَهَبُوا عَنْ دِينِ اللهِ،

---

[٣٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** وَنُسِبَ اتِّخَاذُ الْعِجْلِ إِلَى الْقَوْمِ جَمِيعًا مَعَ أَنَّهُ اتَّخَذَهُ السَّامِرِيُّ وَحْدَهُ؛ لِكَوْنِهِ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَهُمْ رَاضُونَ بِفِعْلِهِ!.

[٣٦] **قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ:** وَالْجَسَدُ: هُوَ الَّذِي لَا يَعْقِلُ وَلَا يُمَيِّزُ، إِنَّمَا مَعْنَى الْجَسَدِ مَعْنَى الْجُثَّة فَقَطْ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ: هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خُوَارٌ؟ أَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيُصَوِّتُ كَالْبَقَرِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: جَعَلَ اللهُ بِقُدْرَتِهِ ذَلِكَ الْحُلِيَّ الْمَصُوغَ جَسَدًا مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ عِجْلًا جَسَدًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الصُّورَةُ لَحْمًا، وَلَا دَمًا، وَلَكِنْ إِذَا دَخَلَتْ فِيهَا الرِّيحُ صَوَّتَتْ كَخُوَارِ الْعِجْلِ!.

وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ؛ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَاللهُ – تَعَالَى – قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَمَادَ لَحْمًا وَدَمًا؛ كَمَا جَعَلَ آدَمَ لَحْمًا وَدَمًا وَكَانَ طِينًا!.

[٣٧] تَقُولُ الْعَرَبُ لِكُلِّ نَادِمٍ عَلَى أَمْرٍ: قَدْ سُقِطَ فِي يَدَيْهِ!.

وَكَفَرُوا بِرَبِّهِمْ؛ ﴿قَالُوا﴾ – تَائِبِينَ إِلَى اللهِ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ مِنْ كُفْرِهِمْ بِهِ –: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لَئِنْ لَمْ يَتَعَطَّفْ عَلَيْنَا رَبُّنَا بِالتَّوْبَةِ بِرَحْمَتِهِ، وَيَتَغَمَّدْ بِهَا ذُنُوبَنَا؛ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْهَالِكِينَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ!.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَجَعَ ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا[38]﴾؛ لِأَنَّ اللهَ كَانَ قَدْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدْ فَتَنَ قَوْمَهُ، وَأَنَّ السَّامِرِيَّ قَدْ أَضَلَّهُمْ، فَكَانَ رُجُوعُهُ غَضْبَانَ أَسِفًا لِذَلِكَ!.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى لِقَوْمِهِ: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى﴾ مُوسَى ﴿الْأَلْوَاحَ[39]﴾ الَّتِي فِيهَا التَّوْرَاةُ، وَكَانَ حَامِلًا لَهَا فَأَلْقَاهَا عَلَى الْأَرْضِ غَضَبًا عَلَى مَا فَعَلَهُ قَوْمُهُ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَحَمِيَّةً لِدِينِ اللهِ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هَارُونَ ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ[40] إِنَّ الْقَوْمَ﴾ الَّذِينَ عَكَفُوا عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ ﴿اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ فِي مُؤَاخَذَتِكَ عَلَيَّ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: عَبَدَةَ الْعِجْلِ.

﴿قَالَ﴾ مُوسَى – لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ عُذْرُ أَخِيهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُفَرِّطْ فِي الْوَاجِبِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ فِي ارْتِكَابِ مَا فَعَلَهُ الْجَهَلَةُ مِنْ عَبَدَةِ الْعِجْلِ –: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ مَا صَنَعْتُ إِلَى

---

[38] الْأَسَفُ: شِدَّةُ الْغَضَبِ وَالتَّغَيُّظُ بِهِ عَلَى مَنْ أَغْضَبَهُ [تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ].

[39] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ: إِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ؛ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا؛ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ!**» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ؛ وَصَحَّحَهُ الْإِمَامُ الْمُحَدِّثُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ(٥٣٧٤)، وَالتَّعْلِيقَاتِ الْحِسَانِ(٦١٨٠)، وَالْمِشْكَاة(٥٧٣٨)، وَقَالَ الْمُحَدِّثُ أَحْمَدُ شَاكِر فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى الْمُسْنَدِ(٢٤٤٧): إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ].

[40] قِيلَ: إِنَّ هَارُونَ إِنَّمَا قَالَ لِمُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: ﴿**يَا ابْنَ أُمَّ**﴾، وَلَمْ يَقُلْ: يَا ابْنَ أَبِي – وَهُمَا لِأَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ –؛ اسْتِعْطَافًا لَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِرَحِمِ الْأُمِّ [تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ].

أَخِي، ﴿وَ﴾اغْفِرْ﴿لِأَخِي﴾إِنْ كَانَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ فِي الْإِنْكَارِ عَلَى عَبَدَةِ الْعِجْلِ، ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ جَمِيعًا﴿فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ عِبَادَكَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ بِعِبَادِكَ مِنْ كُلِّ مَنْ رَحِمَ شَيْئًا!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾إِلَهًا، ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ[٤١] ﴾.

تَظَاهَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: بِأَنَّ اللهَ – إِذْ رَجَعَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – تَابَ عَلَى عَبَدَةِ الْعِجْلِ مِنْ فِعْلِهِمْ، بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ قِيلِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي كِتَابِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَكَانَ أَمْرُ اللهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ قَتْلِ بَعْضِهِمْ أَنْفسَ بَعْضٍ، عَنْ غَضَبٍ مِنْهُ عَلَيْهِمْ بِعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، فَكَانَ قَتْلُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا هَوَانًا لَهُمْ وَذِلَّةً أَذَلَّهُمُ اللهُ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَوْبَةً مِنْهُمْ إِلَى اللهِ قَبِلَهَا.

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾أَيْ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَتْبَعَنِي وَتُعْلِمَنِي بِمَا فَعَلُوا ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ثُمَّ أَخَذَ مُوسَى بِلِحْيَةِ أَخِيهِ هَارُونَ وَرَأْسه يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، فَـ﴿قَالَ﴾ هَارُونُ: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾أَيْ: خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْ تَقُولَ لِي: لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، أَيْ: لَمْ تَعْمَلْ بِوَصِيَّتِي وَتَمْتَثِلْ أَمْرِي!.

ثمَّ أقبل مُوسَى عَلَى السَّامِرِيِّ، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ مَا أَمْرُكَ وَشَأْنُكَ يَا سَامِرِيُّ؟! وَمَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَى مَا فَعَلْتَهُ؟!! ﴿قَالَ﴾ السَّامِرِيُّ: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ رَأَيْتُ مَا

---

[٤١] قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ: قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ مُسَجَّلَةٌ لِكُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!!.

لَمْ يَرَوْا، وَعَرَفْتُ مَا لَمْ يَعْرِفُوا!. ﴿فَقَبَضْتُ﴾ فَأَخَذْتُ بِكَفِّي ﴿قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ فَأَلْقَيْتُهَا فِي الحِلِيِّ الذَّائِبِ ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ وَحَسَّنَتْ ﴿لِي نَفْسِي﴾!!.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾أَيْ: مَا دُمْتَ حَيًّا ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾أَيْ: لَا تُخَالِطْ أَحَدًا، وَلَا يُخَالِطْكَ أَحَدٌ! ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يَا سَامِرِيُّ ﴿مَوْعِدًا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِعَذَابِكَ وَعُقُوبَتِكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ مِنْ إِضْلَالِكَ قَوْمِي حَتَّى عَبَدُوا الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾أَيْ: لَا مَحِيدَ لَكَ عَنْهُ! ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ – بِزَعْمِكَ! – ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾أَيِ: الَّذِي أَقَمْتَ عَلَى عِبَادَتِهِ ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾بِالنَّارِ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا[42]﴾أَيْ: نُلْقِيهِ فِي الْبَحْرِ!!.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مُوسَى – وَاعِظًا –: يَا قَوْمِي! ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾أَيْ: لَا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ – جَلَّ وَعَلَا –، وَهُوَ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾أَيْ: مِنْ قَوْمِهِ ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾أَيْ: لِلْوَقْتِ وَالْأَجَلِ الَّذِي وَعَدَهُ اللهُ أَنْ يَلْقَاهُ فِيهِ بِهِمْ لِلتَّوْبَةِ مِمَّا كَانَ مِنْ فِعْلِ سُفَهَائِهِمْ فِي أَمْرِ الْعِجْلِ ﴿فَلَمَّا﴾أَتَوْا ذَلِكَ الْمَكَانَ﴿أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[43]﴾أَيْ: مَاتُوا! فَلَمَّا رَأَى مُوسَى أَخْذَ الرَّجْفَةِ لَهُمْ؛ ﴿قَالَ﴾: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾يَعْنِي: لَوْ شِئْتَ أَمَتَّنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْرُجَ إِلَى الْمِيقَاتِ بِمَحْضَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى لَا يَتَّهِمُونِي!.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾أَيْ: لَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ مِنَّا، فَإِنَّا بُرَآءُ مِمَّا عَمِلُوا.

---

[42] (النَّسْفُ): نَفْضُ الشَّيْءِ لِيَذْهَبَ بِهِ الرِّيحُ [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ].

[43] قِيلَ: أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لِقَوْلِهِمْ: أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً؛ كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾أَيْ: مَا هَذِهِ الْفَعْلَةُ الَّتِي فَعَلَهَا قَوْمِي مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ؛ إِلَّا اخْتِبَارًا مِنْكَ ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ لِيَتَبَيَّنَ الَّذِي يَضِلُّ عَنِ الْحَقِّ بِعِبَادَتِهِ إِيَّاهُ، وَالَّذِي يَهْتَدِي بِتَرْكِ عِبَادَتِهِ.

﴿أَنْتَ وَلِيُّنا﴾أَنْتَ نَاصِرُنَا﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾فَاسْتُرْ عَلَيْنَا ذُنُوبَنَا بِتَرْكِكَ عِقَابَنَا عَلَيْهَا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ تَعَطَّفْ عَلَيْنَا بِرَحْمَتِكَ ﴿وَأَنْتَ﴾ – يَا رَبِّ – ﴿خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ خَيْرُ مَنْ صَفَحَ عَنْ جُرْمٍ وَسَتَرَ عَلَى ذَنْبٍ!.

۞۞۞۞۞

﴿قِصَّةُ رَفْعِ الْجَبَلِ فَوْقَ رُؤُوسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

قَالَ اللهُ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ مُوسَى لَمَّا جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِالْأَلْوَاحِ؛ قَالَ لَهُمْ: خُذُوهَا وَالْتَزِمُوهَا، فَقَالُوا: لَا! إِلَّا أَنْ يُكَلِّمَنَا اللهُ بِهَا كَمَا كَلَّمَكَ، فَصُعِقُوا ثُمَّ أُحْيُوا، فَقَالَ لَهُمْ: خُذُوهَا وَالْتَزِمُوهَا، فَقَالُوا: لَا! فَأَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ فَاقْتَلَعَتْ جَبَلًا ثُمَّ رَفَعَتْهُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ غَمَامَةٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ!.

وَقِيلَ لَهُمْ: إِنْ لَمْ تَقْبَلُوهَا بِمَا فِيهَا وَإِلَّا سَقَطَ هَذَا الْجَبَلُ عَلَيْكُمْ؛ فَقَبِلُوا ذَلِكَ!!.

۞۞۞۞۞

﴿قِصَّةُ امْتِنَاعِ بَنِي اسْرَائِيلَ مِنْ قِتَالِ الْجَبَّارِينَ لِتَحْرِيرِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ﴾

قَالَ اللهُ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أَيْ: كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا[٤٤] وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي: عَالَمِي زَمَانِكُمْ.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[٤٥]﴾ أَيِ: الْمُطَهَّرَةَ ﴿الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ أَيْ: وَلَا تَجْبُنُوا عَنِ الْجِهَادِ ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أَيْ: فَتَخْسَرُوا بَعْدَ الرِّبْحِ وَتَنْقُصُوا بَعْدَ الْكَمَالِ! ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ – الَّتِي أَمَرْتَنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ أَهْلِهَا – ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ[٤٦]﴾ أَيْ: عُتَاةً كَفَرَةً مُتَمَرِّدِينَ، لَا نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِمْ، وَلَا

---

[٤٤] عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – وَسَأَلَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: «**أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ!**»، قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا! قَالَ: «**فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ!!**» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُ].

[٤٥] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي عَنَاهَا بِـ(الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ)؛ ثُمَّ قَالَ: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، أَنْ يُقَالَ: هِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ؛ كَمَا قَالَ نَبِيُّ اللهِ مُوسَى – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهَا أَرْضٌ دُونَ أَرْضٍ، لَا تُدْرَكُ حَقِيقَةُ صِحَّتِهِ إِلَّا بِالْخَبَرِ؛ وَلَا خَبَرَ بِذَلِكَ يَجُوزُ قَطْعُ الشَّهَادَةِ بِهِ!! غَيْرَ أَنَّهَا لَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي بَيْنَ الْفُرَاتِ وَعَرِيشِ مِصْرَ؛ لِإِجْمَاعِ جَمِيعِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ وَالسِّيَرِ وَالْعُلَمَاءِ بِالْأَخْبَارِ عَلَى ذَلِكَ.

[٤٦] قُلْتُ: وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَاهُنَا أَخْبَارًا فِيهَا مُجَازَفَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْ وَضْعِ جُهَّالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي عَظَمَةِ خَلْقِ هَؤُلَاءِ الْجَبَّارِينَ؛ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشْكَالًا هَائِلَةً ضِخَامًا جِدًّا! حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّ رُسُلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِمْ؛ تَلَقَّاهُمْ رَجُلٌ مِنْ رُسُلِ الْجَبَّارِينَ، فَجَعَلَ يَأْخُذُهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَيَلُفُّهُمْ فِي أَكْمَامِهِ وَحُجْزَةِ سَرَاوِيلِهِ!! وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا!!! فَجَاءَ بِهِمْ فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الْجَبَّارِينَ!! فَقَالَ: مَا هَؤُلَاءِ؟! وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ حَتَّى عَرَّفُوهُ!!.

وَكُلُّ هَذِهِ هَذَيَانَاتٌ وَخُرَافَاتٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا!!!.

وَقَالُوا: أَنَّ الْمَلِكَ بَعَثَ مَعَهُمْ عِنَبًا، كُلُّ عِنَبَةٍ تَكْفِي الرَّجُلَ، وَشَيْئًا مِنْ ثِمَارِهِمْ؛ لِيَعْلَمُوا ضَخَامَةَ أَشْكَالِهِمْ!!.

وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ! وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً يَسْتَحْيِي الْمَرْءُ مِنْ ذِكْرِهَا!!.

ثُمَّ لَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا؛ لَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَعْذُورِينَ فِي النُّكُولِ عَنْ قِتَالِهِمْ، وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللهُ عَلَى نُكُولِهِمْ، وَعَاقَبَهُمْ بِالتِّيهِ عَلَى تَرْكِ جِهَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ!! [قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِابْنِ كَثِيرٍ، بِتَصَرُّفٍ].

طَاقَةَ لَنَا بِحَرْبِهِمْ! ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾أَيْ: لَا يُمْكِنُنَا الدُّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلْنَاهَا؛ وَإِلَّا: فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ!!.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾أَيْ: فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –؛ حَرَّضَهُمْ رَجُلَانِ لِلَّهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ، فَقَالَا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾يَعْنِي: بَابَ مَدِينَتِهِمْ! ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾أَيْ: مَتَى تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ، وَوَافَقْتُمْ رَسُولَهُ؛ نَصَرَكُمُ اللهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَأَيَّدَكُمْ وَظَفَّرَكُمْ بِهِمْ، وَدَخَلْتُمُ الْبَلْدَةَ الَّتِي كَتَبَهَا اللهُ لَكُمْ.

فَلَمْ يَنْفَعْ ذَاكَ فِيهِمْ شَيْئًا!! فَـ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا﴾يَعْنُونَ: إِنَّا لَنْ نَدْخُلَ مَدِينَتَهُمْ أَبَدًا ﴿مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ[47]﴾لَا نَجِيءُ مَعَكَ يَا مُوسَى إِنْ ذَهَبْتَ إِلَيْهِمْ لِقِتَالِهِمْ، وَلَكِنْ نَتْرُكُكَ تَذْهَبُ أَنْتَ وَحْدَكَ وَرَبُّكَ فَتُقَاتِلَانِهِمْ!!.

﴿قَالَ﴾مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾يَعْنِي: لَا أَقْدِرُ عَلَى أَحَدٍ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَى مَا أُحِبُّ وَأُرِيدُ مِنْ طَاعَتِكَ وَاتِّبَاعِ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ؛ إِلَّا عَلَى نَفْسِي وَعَلَى أَخِي.

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِقَضَاءٍ مِنْكَ تَقْضِيهِ فِينَا وَفِيهِمْ فَتُبَعِّدُهُمْ مِنَّا.

---

[47] عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: لَقَدْ شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ مَشْهَدًا[يَوْمَ بَدْرٍ]؛ لَأَنْ أَكُونَ أَنَا صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ! قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَكَانَ رَجُلًا فَارِسًا –، قَالَ: فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا نَبِيَّ اللهِ! وَاللهِ! لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿**اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾، وَلَكِنْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَنَكُونَنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ؛ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ! «فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَشْرَقَ وَجْهُهُ، وَسَرَّهُ ذَاكَ!» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ – وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ لَهُ، وَلِلنَّسَائِيِّ –، وَأَحْمَدُ – وَاللَّفْظُ لَهُ –، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى؛ وَغَيْرُهُمْ].

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيْ: لَا تَحْزَنْ عَلَى مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ!.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّنَتْ تَقْرِيعَ الْيَهُودِ وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ، وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَنُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ، فَضَعُفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابَرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ، مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَلِيمَهُ وَصَفِيَّهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ! وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا وَقَدْ شَاهَدُوا مَا أَحَلَّ اللهُ بِعَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْغَرَقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ لتَقَرَّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ؛ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قدَمٍ! ثُمَّ يَنْكُلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدٍ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا تُوَازِي عُشْرَ الْمِعْشَارِ فِي عِدَّةِ أَهْلِهَا وعُدَدهم، فَظَهَرَتْ قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا يُغَطِّيهَا اللَّيْلُ، وَلَا يَسْتُرُهَا الذَّيْلُ! هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَفِي غَيِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمُ الْبُغَضَاءُ إِلَى اللهِ وَأَعْدَاؤُهُ! وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾! فَقَبَّحَ اللهُ وُجُوهَهُمُ الَّتِي مَسَخَ مِنْهَا الْخَنَازِيرَ وَالْقُرُودَ! وَأَلْزَمَهُمْ لَعْنَةً تَصْحَبُهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، وَيَقْضِي لَهُمْ فِيهَا بِتَأْبِيدِ الْخُلُودِ! وَقَدْ فَعَلَ وَلَهُ الْحَمْدُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُودِ.

۞۞۞۞۞

【ذِكْرُ بَعْضِ الْآيَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللهُ عَلَى يَدَيْ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –】

قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَطِشُوا فِي التِّيهِ فَسَأَلُوا مُوسَى أَنْ يَسْتَسْقِيَ لَهُمْ، فَفَعَلَ؛ قَالَ اللهُ – تَعَالَى – فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾أَيْ: طَلَبَ السُّقْيَا لَهُمْ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – ﴿فَقُلْنَا﴾ فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فَضَرَبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾أَيْ: مِنَ الْحَجَرِ ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ عَلَى عَدَدِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾كَانَ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ عَيْنٌ مِنْ تِلْكَ الْعُيُونِ لَا يَتعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾أَيْ: وَقُلْنَا لَهُمْ كُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَاشْرَبُوا مِنَ الْمَاءِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ رِزْقِ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَا مَشَقَّةٍ ﴿وَلَا تَعْثَوْا[٤٨]فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾أَيْ: لَا تَنْشُرُوا فَسَادَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَكُونُوا فِي الشُّرُورِ قُدْوَةً سَيِّئَةً لِلنَّاسِ.

ثُمَّ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضَجِرُوا مِنْ مُدَاوَمَةِ أَكْلِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَاشْتَاقَتْ نُفُوسهُمْ إِلَى الشَّجَرَتَيْنِ الْمُنْتِنَتَيْنِ[٤٩]: (الثُّومِ وَالْبَصَلِ!).[٥٠]

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ – وَهُوَ كُلُّ نَبَاتٍ اخْضَرَّتْ بِهِ الْأَرْضُ – ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ – وَهُوَ الْخِيَارُ وَصِغارُ الْبِطِّيخِ وَالْفَقُّوسُ – ﴿وَفُومِهَا﴾ – وَهُوَ الثُّومُ – ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾يَعْنِي: أَتَأْخُذُونَ الَّذِي هُوَ أَقَلُّ قِيمَةً وَقَدْرًا مِنَ الْعَيْشِ، بَدَلًا بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ قِيمَةً وَقَدْرًا؟!.

---

[٤٨] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَأَصْلُ الْعَثَا: شِدَّةُ الْإِفْسَادِ؛ بَلْ هُوَ أَشَدُّ الْإِفْسَادِ! يُقَالُ مِنْهُ: عَثَى فُلَانٌ فِي الْأَرْضِ: إِذَا تَجَاوَزَ فِي الْإِفْسَادِ إِلَى غَايَتِهِ!.

[٤٩] انظُرْ: صَحِيحَ مُسْلِمٍ، كِتَاب الْمَسَاجِدِ، بَاب نَهْيِ مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا أَوْ كُرَّاثًا أَوْ نَحْوَهَا مِمَّا لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ عَنْ حُضُورِ الْمَسْجِدِ حَتَّى تَذْهَبَ تِلْكَ الرِّيحِ وَإِخْرَاجه مِنَ الْمَسْجِدِ.

[٥٠] **قَالَ الْحَسَنُ:** كَانُوا نَتَانَى! أَهْلَ كُرَّاثٍ وَأَبْصَالٍ!! [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ].

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنِ اسْتَبْدَلَ بِالْمَنِّ وَالسَّلْوَى الْبَقْلَ وَالْقِثَّاءَ وَالْعَدَسَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ؛ فَقَدِ اسْتَبْدَلَ الْوَضِيعَ مِنَ الْعَيْشِ بِالرَّفِيعِ مِنْهُ!!.

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَا سَأَلْتُمْ﴾ فَالَّذِي تَمَنَّيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ.[٥١]

۞۞۞۞۞

[٥١] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ دَعَا، وَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: يَهْبِطُونَ مِصْرًا فَإِنَّ لَهُمْ مَا سَأَلُوا؛ فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ كَيْفَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ مِنْهُ، ثُمَّ هُوَ يَذْهَبُ وَيَدْعُو اللهَ بِهِ؟!!.

فَالصَّوَابُ: أَنَّ مُوسَى وَبَّخَهُمْ عَلَى مَا سَأَلُوا، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي طَلَبْتُمْ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مِصْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا**﴾.

﴿قِصَّةُ بَقَرَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

وُجِدَ قَتِيلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَدْرُوا قَاتِلَهُ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، حَتَّى تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمْ وَكَادَ – لَوْلَا تَبْيِينُ اللهِ لَهُمْ – يَحْدُثُ بَيْنَهُمْ شَرٌّ كَبِيرٌ!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ لِبَيَانِ الْقَاتِلِ مَنْ هُوَ؟ فَـ﴿قَالُوا﴾ لِنَبِيِّهِمُ الْكَلِيمِ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾أَيْ: أَتَسْتَهْزِئُ بِنَا! نَحْنُ نَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ، وَتَأْمُرُنَا بِذَبْحِ الْبَقَرَةِ!!.

وَمَا عَلِمُوا أَنَّه لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ – فِيمَا أَخْبَرَتْ عَنِ اللهِ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ – هُزُوٌ أَوْ لَعِبٌ.

فَظَنُّوا بِمُوسَى أَنَّهُ فِي أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ – عَنْ أَمْرِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِذِبْحِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ تَدَارُئِهِمْ فِي الْقَتِيلِ إِلَيْهِ – أَنَّهُ هَازِئٌ لَاعِبٌ!.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا ذَلِكَ بِنَبِيِّ اللهِ، وَهُوَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذِبْحِ الْبَقَرَةِ.

فَأَخْبَرَهُمْ مُوسَى – إِذْ قَالُوا لَهُ مَا قَالُوا – إِنَّ الْمُخْبِرَ عَنِ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِالْهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ، مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَبَرَّأَ نَفْسَهُ مِمَّا ظَنُّوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَـ﴿قَالَ﴾:

﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾يَعْنِي: مِنَ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ يَرْوُونَ عَنِ اللهِ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ!.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾أَيْ: مَا سِنُّهَا؟.

وَهَذَا مِنْ تَعَنُّتِهِمْ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لِرَسُولِهِمْ! وَلِهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ ضُيِّقَ عَلَيْهِمْ! وَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ كَانَتْ؛ لَأَجْزَأَتْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ!!.

﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿إِنَّهُ﴾أَيْ: إِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾أَيْ: لَا كَبِيرَةٌ فِي السِّنِّ ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ وَلَا صَغِيرَةٌ ﴿عَوَانٌ﴾ وَسَطٌ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾أَيْ: بَيْن السِّنَّيْنِ.

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾من ذَبْحِ الْبَقَرَةِ وَلَا تُكْثِرُوا السُّؤَالَ!.

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرْعَوُوا؛ فَـ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تُدْخِلُ عَلَيْهِمُ السُّرُورَ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهَا؛ إِعْجَابًا بِهَا، وَاسْتِحْسَانًا لِلَوْنِهَا!.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾: هَلْ هِيَ عَامِلَةٌ، أَوْ لَا؟.

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لِكَثْرَتِهَا، فَمَيِّزْ لَنَا هَذِهِ الْبَقَرَةَ، وَصِفْهَا لَنَا، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ﴾ إِذَا بَيَّنْتَهَا لَنَا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إِلَيْهَا.

﴿قَالَ﴾مُوسَى لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّهُ﴾أَيْ: إِنَّ اللهَ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا﴾أَيْ: إِنَّ الْبَقَرَةَ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ بِذَبْحِهَا ﴿بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾أَيْ: غَيْرُ مُذَلَّلَةٍ بِالْعَمَلِ فِي الْحِرَاثَةِ وَلَا فِي السَّقْيِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾مِنَ الْعُيُوبِ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾أَيْ: لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ آخَرُ غَيْرَ الصُّفْرَةِ الْفَاقِعَةِ. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ[٥٢]﴾أَيْ: بِالْحَقِّ الْوَاضِحِ وَالْبَيَانِ التَّامِّ الشَّافِي الَّذِي لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِشْكَالٌ، فِي صِفَاتِ الْبَقَرَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾يَعْنِي: فَذَبَحَ قَوْمُ مُوسَى الْبَقَرَةَ الَّتِي وَصَفَهَا اللهُ لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِذَبْحِهَا، ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾يَعْنِي: أَنَّهم مَعَ هَذَا الْبَيَانِ، وَهَذِهِ الْأَسْئِلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ وَالْإِيضَاحِ؛ مَا ذَبَحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ!.

وَفِي هَذَا ذَمٌّ لَهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعَنُّتَ، فَلِهَذَا مَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا!.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾أَيِ: اخْتَلَفْتُمْ فِي الْقَتِيلِ، كُلّ فَرِيقٍ يَدْفَعُ الْجِنَايَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّهِمُ غَيْرَهُ، قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ! وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ!!.

---

[٥٢] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَقَدْ كَانَ بَعْضُ مَنْ سَلَفَ يَزْعُمُ أَنَّ الْقَوْمَ ارْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ، وَكَفَرُوا بِقَوْلِهِمْ لِمُوسَى: ﴿**الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**﴾ وَيَزْعُمُ أَنَّهُمْ نَفَوْا أَنْ يَكُونَ مُوسَى أَتَاهُمْ بِالْحَقِّ فِي أَمْرِ الْبَقَرَةِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ وَقِيلِهِمْ كُفْرٌ! وَلَيْسَ الَّذِي قَالَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا كَمَا قَالَ؛ لِأَنَّهُمْ أَذْعَنُوا بِالطَّاعَةِ بِذَبْحِهَا، وَإِنْ كَانَ قِيلُهُمُ الَّذِي قَالُوهُ لِمُوسَى جَهْلَةً مِنْهُمْ وَهَفْوَةً مِنْ هَفَوَاتِهِمْ!!.

﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ﴾أَيْ: مُظْهِرٌ ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فَإِنَّ الْقَاتِلَ كَانَ يَكْتُمُ الْقَتْلَ!.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾يَعْنِي: الْقَتِيلَ ﴿بِبَعْضِهَا[٥٣]﴾أَيْ: بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾أَيْ: كَمَا أَحْيَا هَذَا الْقَتِيلَ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ كُلَّ مَنْ مَاتَ ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾أَيْ: عَلَامَاتِهِ وَدَلَائِلَهُ الدَّالَّةَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

۞۞۞۞۞

[٥٣] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** أَمَرَهُمُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنْ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ لِيَحْيَا الْمَضْرُوبُ.

وَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ، وَلَا[فِي]خَبَرٍ تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ، عَلَى أَيِّ أَبْعَاضِهَا الَّتِي أُمِرَ الْقَوْمُ أَنْ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِهِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَضْرِبُوهُ بِهِ هُوَ الْفَخِذُ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الذَّنَبَ وَغُضْرُوفَ الْكَتِفِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَبْعَاضِهَا.

وَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِأَيِّ ذَلِكَ ضَرَبُوا الْقَتِيلَ، وَلَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ بِهِ! مَعَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ ضَرَبُوا الْقَتِيلَ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ بَعْدَ ذَبْحِهَا فَأَحْيَاهُ اللهُ.

﴿قِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ[٥٤] – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ –﴾

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: قَامَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ! قَالَ: فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ! فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ[٥٥] هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ! قَالَ مُوسَى: أَيْ رَبِّ! كَيْفَ لِي بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا[٥٦][مَالِحًا]فِي مِكْتَلٍ[٥٧]، فَحَيْثُ تَفْقِدُ الْحُوتَ؛ [فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ]، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ – وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ – فَحَمَلَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، [فَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا]، وَانطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَقَدَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَفَتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ؛ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ! [وَمُوسَى نَائِمٌ! فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ]، قَالَ: وَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ

---

٥٤ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ خَضِرًا؛ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ!**» [حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ؛ وَغَيْرُهُمْ].

قَوْلُهُ: (**جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ**)أَيْ: عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ، (**تَهْتَزُّ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ**)أَيْ: نَبَاتًا أَخْضَرَ نَاعِمًا.

٥٥ اخْتُلِفَ فِي مَكَانِ (**مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ**): فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: بَحْرُ فَارِسٍ وَالرُّومِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ أَقْوَالًا مُخْتَلِفَةً فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا اخْتِلَافٌ شَدِيدٌ!! [تُحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ].

٥٦ (**الْحُوتُ**): الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ مِنَ السَّمَكِ، وَالْجَمْعُ: حِيتَانٌ، وَأَحْوَاتٌ.

قَالَ فِي مُخْتَارِ الصِّحَاحِ، مَادَّة(ح و ت): وَهَكَذَا قَالَ الْأَزْهَرِيُّ، وَيُؤَيِّدُ كَوْنَهُ مُطْلَقَ السَّمَكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾[الْكَهْفُ: ٦١]، وَالْمَنْقُولُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّهَا كَانَتْ سَمَكَةً فِي مِكْتَلٍ، وَمَا ظَنُّكَ بِزَوَّادَةِ اثْنَيْنِ خُصُوصًا مُوسَى وَصَاحِبَهُ؟! وَأَدَلُّ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ**﴾[الْأَعْرَافُ: ١٦٣].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ**﴾[الصَّافَّات: ١٤٢]؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِطْلَاقِ الْحُوتِ عَلَى السَّمَكَةِ الْكَبِيرَةِ؛ لَا عَلَى حَصْرِ مُسَمَّى الْحُوتِ فِيهَا كَمَا يَظُنُّهُ الْعَامَّةُ!!.

٥٧ (**الْمِكْتَلُ**): الزِّنْبِيلُ؛ وَهُوَ قُفَّةٌ تُعْمَلُ مِنَ وَرَقِ النَّخْلِ، يُحْمَلُ فِيهَا التَّمْرُ وَغَيْرُهُ، تَسَعُ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا.

حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يُخْبِرَهُ[بِالْحُوتِ]، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، قَالَ: وَلَمْ يَنْصَبْ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، [فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ:]: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قَالَ: [فَجَعَلَا] يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ[٥٨]، [فَأَرَاهُ مَكَانَ الْحُوتِ، قَالَ: هَا هُنَا وُصِفَ لِي]؛ فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًّى[٥٩] عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، [فَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، قَالَ: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ! مَنْ أَنْتَ؟] قَالَ: أَنَا مُوسَى! قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ! قَالَ لَهُ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، [قَالَ: أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ يَا مُوسَى؟!] ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، [شَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ، إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ!]، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، قَالَ: نَعَمْ! فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَى يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ؛ [فَقَالُوا: عَبْدُ اللهِ الصَّالِحُ! لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ] فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ! فَقَالَ لَهُ مُوسَى: [مَا صَنَعْتَ؟!] قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا؟!﴿ [أَخَرَقْتَهَا]لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

---

[٥٨] (**حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ**) أَيِ: الَّتِي عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، وَالصَّخْرَةُ فِي اللُّغَةِ: الْحَجَرُ الْكَبِيرُ [تُحْفَةُ الأَحْوَذِيّ].

[٥٩] (**مُسَجًّى**) أَيْ: مُغَطًّى، وَالْمُتَسَجِّي: الْمُتَغَطِّي.

تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، إِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ، فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ! فَقَتَلَهُ!! فَقَالَ[لَهُ]مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾!! قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى! ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾[لِئَامًا، فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَـ]﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، يَقُولُ: مَائِلٌ، قَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا؛ فَأَقَامَهُ! قَالَ لَهُ مُوسَى: قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا، [عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ][فَأَقَمْتَهُ؟!]، ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾:

﴿[أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾، وَكَانَ أَمَامَهُمْ ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدَعَهَا لِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا].

[﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ﴾ كَافِرًا وَكَانَ ﴿أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾: أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ، ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالْأَوَّلِ الَّذِي [قَتَلَهُ] خَضِرٌ]، [وَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَى أُمِّهِ، فَعَلِقَتْ، فَوَلَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا].

[﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي[60] ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾].

---

[60] قَوْلُهُ: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) يَعْنِي: بَلْ بِأَمْرِ اللهِ – تَعَالَى –. قُلْتُ: وَهَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْخَضِرَ نَبِيٌّ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى! لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا[٦١]، [وَالْوُسْطَى شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا]»، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، ثُمَّ نَقَرَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ!.[٦٢]

❁❁❁❁❁

[٦١] قَوْلُهُ: (**كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا**) يَعْنِي: أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ إِنْكَارِهِ خَرْقَ السَّفِينَةِ كَانَ نَاسِيًا؛ لِأَنَّ الْخَضِرَ شَرَطَ عَلَيْهِ فَقَالَ: فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا، وَوَافَقَ مُوسَى عَلَى شَرْطِهِ، بِقَوْلِهِ: نَعَمْ! فَلَمَّا خَالَفَ مُوسَى الشَّرْطَ ؛ اعْتَذَرَ بِقَوْلِهِ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا.

[٦٢] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ – وَاللَّفْظُ لَهُ، وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ لَهُ وَلِلْبُخَارِيِّ –، وَأَحْمَدُ – وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ قَبْلَ الْأَخِيرِ لَهُ –، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ؛ وَغَيْرُهُمْ.

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْمَنَارِ الْمُنِيفِ: الْأَحَادِيثُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا الْخَضِرُ وَحَيَاتُهُ كُلُّهَا كَذِبٌ وَلَا يَصِحُّ فِي حَيَاتِهِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ!...سُئِلَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ عَنْ تَعْمِيرِ الْخَضِرِ وَأَنَّهُ بَاقٍ؛ فَقَالَ: مَنْ أَحَالَ عَلَى غَائِبٍ لَمْ يَنْتَصِفْ مِنْهُ! وَمَا أَلْقَى هَذَا بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا شَيْطَانٌ!!.

وَسُئِلَ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْخَضِرِ وَإِلْيَاسَ هَلْ هُمَا أَحْيَاءٌ؟ فَقَالَ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا؛ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «لَا يَبْقَى عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ!» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ غَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ؛ فَقَالُوا: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾؟

وَسُئِلَ عَنْهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللهُ –؛ فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْخَضِرُ حَيًّا؛ لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيُجَاهِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَوْمَ بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلَكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ؛ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ!» وَكَانُوا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مَعْرُوفِينَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، فَأَيْنَ كَانَ الْخَضِرُ حِينَئِذٍ؟!.

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ بِبَاقٍ فِي الدُّنْيَا؛ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءٍ: الْقُرْآنُ، وَالسُّنَّةُ، وَإِجْمَاعُ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَالْمَعْقُولُ اهـ.

﴿قِصَّةُ تَعْيِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَلِيمَ اللهِ بِأَنَّهُ آدَرُ[63]﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ! وَكَانَ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – [رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا] يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ [لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ]، فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: وَاللهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ! قَالَ: فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، [ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا]؛ فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ!! [فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ]: ثَوْبِي[يَا]حَجَرُ! ثَوْبِي[يَا]حَجَرُ!! حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى سَوْأَةِ مُوسَى[أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ]، قَالُوا: وَاللهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ!! فَقَامَ الْحَجَرُ حَتَّى نُظِرَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَخَذَ ثَوْبَهُ[فَلَبِسَهُ]فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا[بِعَصَاهُ! فَوَاللهِ إِنَّ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا[64] مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا!! فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا﴾].[65]

۞۞۞۞۞

[63] (**الْأُدْرَةُ**) – وِزَانُ غُرْفَةٍ –: انْتِفَاخُ الْخُصْيَةِ، يُقَالُ: أَدِرَ يَأْدَرُ فَهُوَ آدَرُ [الْمِصْبَاحُ الْمُنِير، مَادَّة: (ء د ر)].

[64] (**النَّدَبُ**): أَثَرُ الْجُرْحِ أَوِ الضَّرْبِ إِذَا لَمْ يَرْتَفِعْ عَنِ الْجِلْدِ.

[65] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ – وَاللَّفْظُ لَهُ، وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ لِلْبُخَارِيِّ –، وَأَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ؛ وَغَيْرُهُمْ.

﴿صِفَاتُ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – الْخِلْقِيَّة﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، [فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ]، آدَمُ، طُوَالٌ، [جَعْدُ الرَّأْسِ]، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ».[٦٦]

قَوْلُهُ: (رَجُلٌ ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ): هُوَ الْخَفِيفُ اللَّحْمِ الْمَمْشُوقُ الْمُسْتَدِقُّ.[٦٧]

قَوْلُهُ: (آدَمُ) أَيْ: أَسْمَرُ؛ وَهُوَ لَوْنٌ بَيْنَ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ، وَقَوْلُهُ: (طُوَالٌ) مَعْنَاهُ: طَوِيلٌ.

قَوْلُهُ: (جَعْدُ الرَّأْسِ) أَيْ: أَنَّ شَعْرَهُ فِيهِ الْتِوَاءٌ، وَذَلِكَ خِلَافُ الْمُسْتَرْسِلِ.

قَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ): حَيٌّ مِنَ الْيَمَنِ يُنْسَبُونَ إِلَى شَنُوءَةَ؛ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَالِكِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ. وَلُقِّبَ شَنُوءَةَ؛ لِشَنَئَانٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ.

۞۞۞۞۞

---

[٦٦] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ؛ وَغَيْرُهُمْ.

[٦٧] النِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، مَادَّة: (ضَرَبَ).

﴿ذِكْرُ بَعْضِ فَضَائِلِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –﴾

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا[٦٨]﴾.

وَمِنْ وَجَاهَتِهِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ اللهِ: أَنَّهُ شَفَعَ فِي أَخِيهِ هَارُونَ أَنْ يُرْسِلَهُ اللهُ مَعَهُ، فَأَجَابَ اللهُ سُؤَالَهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾فَأَيُّ وَجَاهَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ!؟.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قِسْمَةً فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ!! فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَغَضِبَ[مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا]؛ حَتَّى[احْمَرَّ وَجْهُهُ!]؛ وَقَالَ: «رَحِمَ اللهُ مُوسَى! لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ!!».[٦٩]

❁❁❁❁❁

---

[٦٨] الْوَجِيهُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الْعَظِيمُ الْقَدْرِ، الرَّفِيعُ الْمَنْزِلَةِ [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ].

[٦٩] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ؛ وَغَيْرُهُمْ.

وَمِنْ جُمْلَةِ الْإِيذَاءِ الَّذِي وَقَعَ عَلَى مُوسَى – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَوْلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ: إِنَّهُ آدَرُ!.

وَمِنْ جُمْلَةِ الْإِيذَاءِ الَّذِي وَقَعَ عَلَى مُوسَى – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَوْلُ أَحَدِ الْخَوَنَةِ(!) الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاصِفًا كَلِيمَ الرَّحْمَنِ بِأَنَّهُ: (نَمُوذَجٌ لِلزَّعِيمِ الْمُنْدَفِعِ الْعَصَبِيِّ الْمِزَاجِ)!!

وَقَالَ هَذَا الْخَائِنُ الْمُجْرِمُ – عَامَلَهُ اللهُ بِعَدْلِهِ –: (وَلَكِنْ هَا هُوَ ذَا يَسْأَلُ رَبَّهُ سُؤَالًا عَجِيبًا...ثُمَّ حَدَثَ مَالَا تَحْتَمِلُهُ أَيَّةُ أَعْصَابٍ إِنْسَانِيَّةٍ؛ بَلْهَ أَعْصَابَ مُوسَى)!! وَقَالَ هَذَا الْخَائِنُ الْمُجْرِمُ: (فَلْنَدَعْهُ هُنَا[يَعْنِي: مُوسَى]لِنَلْتَقِي بِهِ فِي فَتْرَةٍ ثَانِيَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ؛ فَلَعَلَّهُ قَدْ هَدَأَ وَصَارَ رَجُلًا هَادِئَ الطَّبْعِ حَلِيمَ النَّفْسِ؛ كَلَّا...إِنَّهُ الْفَتَى الْعَصَبِيُّ نَفْسُهُ)!!.

قُلْتُ: وَلَمَّا قُرِئَ هَذَا الْكَلَامُ الْقَبِيحُ عَلَى الْإِمَامِ ابْنِ بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –؛ قَالَ: الِاسْتِهْزَاءُ بِالْأَنْبِيَاءِ رِدَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ!!.

﴿قِصَّةُ وَفَاةِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَلَطَمَهُ مُوسَى فَفَقَأَ عَيْنَهُ! قَالَ: فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، [وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي! فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ]، [فَقَالَ لَهُ]: ارْجِعْ إِلَيْهِ، فَقُلْ[لَهُ]: [الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ]؛ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَكَ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ يَدُكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ! (وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ وَارتْ يَدُكَ سَنَةً) قَالَ: فَقَالَ لَهُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ!! قَالَ: فَالْآنَ يَا رَبِّ! قَالَ: فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةَ حَجَرٍ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «[لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ]؛ لَأَرَيْتُكُمْ مَوْضِعَ قَبْرِهِ إِلَى جَانِبِ[الطَّرِيقِ]تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ».[٧٠]

[٧٠] حَدِيثٌ صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَأَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ – وَاللَّفْظُ لَهُ، وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ لَهُ –، وَالنَّسَائِيُّ؛ وَغَيْرُهُمْ. (**مَتْنُ الثَّوْرِ**): ظَهْرُهُ، وَ(**الْكَثِيبُ**): هُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الرَّمْلِ؛ كَالتَّلِّ الصَّغِيرِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ حِبَّانَ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي صَحِيحِهِ تَحْتَ الْحَدِيثِ(٦٢٢٣): إِنَّ اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – بَعَثَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُعَلِّمًا لِخَلْقِهِ، فَأَنْزَلَهُ مَوْضِعَ الْإِبَانَةِ عَنْ مُرَادِهِ، فَبَلَّغَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رِسَالَتَهُ، وَبَيَّنَ عَنْ آيَاتِهِ بِأَلْفَاظٍ مُجْمَلَةٍ وَمُفَسَّرَةٍ، عَقَلَهَا عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَوْ بَعْضُهُمْ، **وَهَذَا الْخَبَرُ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي يُدْرِكُ مَعْنَاهُ مَنْ لَمْ يَحْرُمِ التَّوْفِيقَ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ**.

وَذَاكَ أَنَّ اللهَ – جَلَّ وَعَلَا – أَرْسَلَ مَلَكَ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى رِسَالَةَ ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، أَمْرَ اخْتِبَارٍ وَابْتِلَاءٍ؛ لَا أَمْرًا يُرِيدُ اللهُ – جَلَّ وَعَلَا – إِمْضَاءَهُ ...، فَكَانَ مَجِيءُ مَلَكِ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ يَعْرِفُهُ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَلَيْهَا، وَكَانَ مُوسَى غَيُورًا، فَرَأَى فِي دَارِهِ رَجُلًا لَمْ يَعْرِفْهُ! فَشَالَ يَدَهُ فَلَطَمَهُ!! فَأَتَتْ لَطْمَتُهُ عَلَى فَقْءِ عَيْنِهِ الَّتِي فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَتَصَوَّرُ بِهَا؛ لَا الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا...

وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَرِيعَتِنَا أَنَّ مَنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخِلِ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، أَوِ النَّاظِرِ إِلَى بَيْتِهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، مِنْ غَيْرِ جُنَاحٍ عَلَى فَاعِلِهِ، وَلَا حَرَجٍ عَلَى مُرْتَكِبِهِ...؛ كَانَ جَائِزًا اتِّفَاقُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ بِشَرِيعَةِ مُوسَى، بِإِسْقَاطِ الْحَرَجِ عَمَّنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخِلِ دَارَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ مُوسَى هَذَا الْفِعْلِ مُبَاحًا لَهُ وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ.

فَلَمَّا رَجَعَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى رَبِّهِ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ مُوسَى فِيهِ؛ أَمَرَهُ ثَانِيًا بِأَمْرٍ آخَرَ أَمْرَ اخْتِبَارٍ وَابْتِلَاءٍ كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلُ، إِذْ قَالَ اللهُ لَهُ: قُلْ لَهُ: إِنْ شِئْتَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَلَكَ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ يَدُكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ، فَلَمَّا عَلِمَ مُوسَى كَلِيمُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ – أَنَّهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَأَنَّهُ جَاءَهُ بِالرِّسَالَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ طَابَتْ نَفْسُهُ بِالْمَوْتِ، وَلَمْ يَسْتَمْهِلْ؛ وَقَالَ: فَالْآنَ!.

فَلَوْ كَانَتِ الْمَرَّةُ الْأُولَى عَرَفَهُ مُوسَى أَنَّهُ مَلَكُ الْمَوْتِ؛ لَاسْتَعْمَلَ مَا اسْتَعْمَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُخْرَى عِنْدَ تَيَقُّنِهِ وَعِلْمِهِ بِهِ. ضِدَّ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، وَرُعَاةُ اللَّيْلِ! يَجْمَعُونَ مَا لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَيَرْوُونَ مَا لَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ! وَيَقُولُونَ بِمَا يُبْطِلُهُ الْإِسْلَامُ!! جَهْلًا مِنْهُ لِمَعَانِي الْأَخْبَارِ، وَتَرْكَ التَّفَقُّهِ فِي الْآثَارِ، مُعْتَمِدًا مِنْهُ عَلَى رَأْيِهِ الْمَنْكُوسِ! وَقِيَاسِهِ الْمَعْكُوسِ!!.

قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي شَرْحِ السُّنَّةِ:

هَذَا الْحَدِيثُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ الْإِيمَانُ بِهِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَبِرَهُ بِمَا جَرَى عَلَيْهِ عُرْفُ الْبَشَرِ، فَيَقَعُ فِي الِارْتِيَابِ! لِأَنَّهُ أَمْرٌ مَصْدَرُهُ عَنْ قُدْرَةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وَحُكْمِهِ، وَهُوَ مُجَادَلَةٌ بَيْنَ مَلَكٍ كَرِيمٍ، وَنَبِيٍّ كَلِيمٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَخْصُوصٌ بِصِفَةٍ خَرَجَ بِهَا عَنْ حُكْمِ عَوَامِّ الْبَشَرِ، وَمَجَارِي عَادَاتِهِمْ فِي الْمَعْنَى الَّذِي خُصَّ بِهِ، فَلَا يُعْتَبَرُ حَالُهُمَا بِحَالِ غَيْرِهِمَا! وَقَدِ اصْطَفَى اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مُوسَى بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، وَأَيَّدَهُ بِالْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ؛ كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَالْعَصَا، وَانْفِلَاقِ الْبَحْرِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الْآثَارُ، وَكُلُّ ذَلِكَ إِكْرَامٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – أَكْرَمَهُ بِهَا. فَلَمَّا دَنَتْ وَفَاتُهُ – وَهُوَ بَشَرٌ يَكْرَهُ الْمَوْتَ طَبْعًا، وَيَجِدُ أَلَمَهُ حِسًّا –؛ لَطُفَ لَهُ بِأَنْ لَمْ يُفَاجِئْهُ بِهِ بَغْتَةً، وَلَمْ يَأْمُرِ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِهِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِهِ قَهْرًا! لَكِنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مُنْذِرًا بِالْمَوْتِ، وَأَمَرَهُ بِالتَّعَرُّضِ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الِامْتِحَانِ فِي صُورَةِ بَشَرٍ!.

فَلَمَّا رَآهُ مُوسَى اسْتَنْكَرَ شَأْنَهُ، وَاسْتَوْعَرَ مَكَانَهُ، فَاحْتَجَزَ مِنْهُ دَفْعًا عَنْ نَفْسِهِ، بِمَا كَانَ مِنْ صَكِّهِ إِيَّاهُ، فَأَتَى ذَلِكَ عَلَى عَيْنِهِ الَّتِي رُكِّبَتْ فِي الصُّورَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي جَاءَهُ فِيهَا، دُونَ صُورَةِ الْمَلَكِيَّةِ الَّتِي هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهَا...، وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الدِّينِ بِدَفْعِ مَنْ قَصَدَكَ بِسُوءٍ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ؛ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ!» [رواه مسلم، وغيره].

فَلَمَّا نَظَرَ مُوسَى إِلَى شَخْصٍ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، هَجَمَ عَلَيْهِ يُرِيدُ نَفْسَهُ، وَيَقْصِدُ هَلَاكَهُ! وَهُوَ لَا يُثْبِتُهُ، وَلَا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّهِ؛ دَفَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَكَانَ فِيهِ ذَهَابُ عَيْنِهِ! فَلَمَّا عَادَ الْمَلَكُ، إِلَى رَبِّهِ، رَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَأَعَادَهُ رَسُولًا إِلَيْهِ؛ لِيَعْلَمَ نَبِيُّ اللهِ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – إِذَا رَأَى صِحَّةَ عَيْنِهِ الْمَفْقُوءَةِ – أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ بَعَثَهُ لِقَبْضِ رُوحِهِ! فَاسْتَسْلَمَ حِينَئِذٍ لِأَمْرِهِ، وَطَابَ نَفْسًا بِقَضَائِهِ! وَكُلُّ ذَلِكَ رِفْقٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – وَلُطْفٌ مِنْهُ فِي تَسْهِيلِ مَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ لِقَائِهِ، وَالِانْقِيَادِ لِمَوْرِدِ قَضَائِهِ!...

وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَى أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ فِي كِتَابِهِ، رَدًّا عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ – وَأَمْثَالِهِ – مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْمُلْحِدِينَ! أَبَادَهُمُ اللهُ، وَكَفَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ!! اهـ.

۞۞۞۞۞

إِلَى هُنَا انْتَهَيْتُ – بِحَمْدِ اللهِ – من تَسْوِيدِ هَذَا الْجَمْعِ لِقِصَّةِ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي – هَذَا – خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَاتِبَهُ، وَقَارِئَهُ، وَجَمِيْعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَوَافَقَ الْفَرَاغُ مِنْهُ – بِفَضْلِ اللهِ وَإِعَانَتِهِ – بَعْدَ عِشَاءِ لَيْلَةِ الْأَرْبِعَاءِ سَادِسَ عَشَرَ صَفَرٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى أَشْرَفِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وَكَتَبَ/ أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيتَة

أَبُو حَمْزَةَ

أَهَمُّ مَرَاجِعِ الْبَحْثِ:

١ – الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ.
٢– أَضْوَاءُ الْبَيَانِ، لِلشِّنْقِيطِيِّ.
٣– تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ.
٤– تَفْسِيرُ الطَّبَرِيِّ.
٥– تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ.
٦– تَفْسِيرُ فَتْحِ الْقَدِيرِ، لِلشَّوْكَانِيِّ.
٧– تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ.
٨– قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ، لِابْنِ كَثِيرٍ.
٩– صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ.
١٠– صَحِيحُ مُسْلِمٍ.
١١– صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ.
١٢– سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ.
١٣– سُنَنُ النَّسَائِيِّ.
١٤– شَرْحُ السُّنَّةِ، لِلْبَغَوِيِّ.
١٥– مُسْنَدُ أَحْمَدَ، تَحْقِيق: أَحْمَد شَاكِر.
١٦– السِّلْسِلَةُ الصَّحِيحَة، لِلْأَلْبَانِيِّ.
١٧– صَحِيحُ الْجَامِعِ، لِلْأَلْبَانِيِّ.